قافلة النور

قافلة النور

د. علي بن حمزة العُمري

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

إهداء..

إلى الداعية الرباني الراحل أبي موسى

حمد الصليفيح (رَحِمَهُ اللَّهُ)

رمزاً للوفاء، وعرفاناً بالجميل من تضحية في لمِّ الشمل، وجمعٍ للكلمة، وثباتٍ في المحنة وراء القضبان، يضربُ الأمثال للسائرين. . . .

محبكم

علي

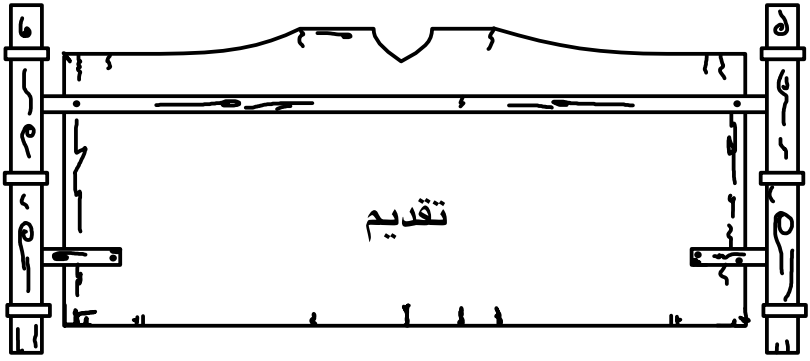

مع اختراق طبقة الأوزون بسبب التلوث الكبير الناتج من مداخن المصانع وعوادم السيارات، وخاصة في الدول الصناعية الكبرى؛ تزداد حرارة الشمس لتلهب أراضٍ واسعة في هذا العالم ليزداد الجفاف، ويهلك الحرث والنسل.

هذه الصورة التي يراها أبناء هذا العصر عياناً ولا ينكرونها، تقابلها صورة جفاف أكبر في النفوس بعد اختراق طبقة التقوى والمراقبة، بسبب تلوث النفوس بالمعاصي والانغماس بالشهوات، لتتدفق عبر ذلك الحاجز المثقوب أشعة الغفلة ولهيب القسوة فيحدث الجفاف الكبير في الأرواح، ولا منقذ لها إلا قطرات الإيمان، وسيل العزائم والهمم العالية ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

إن سلسلة المنتقى الإيماني التي يكتبها أخي الحبيب د. علي بن حمزة العمري ما هي إلا تحسين لهذا القطر الإيماني الذي يسبب بإذن الله عودة الانتفاضة لتلك الأرواح

الجافة، والعزائم المريضة، والهمم الجامدة.

لقد أحسن أخي الحبيب د. علي العمري اختيار الكلمة الطيبة، والعبارة الجميلة، وذلك عبر اختيار المواقف من بطون أمهات الكتب، وربط الماضي بالحاضر باختيار عبارات السلف والمعاصرين من الدعاة، فالجميع ينهلون من منبع واحد.

لقد كانت الريادة للرعيل الأول بسبب أخذهم من هذا المنبع الأصيل، ولن تكون لنا ريادة ما لم نقتف آثارهم، «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي**..»[(١)].

عبدالحميد جاسم البلالي

(١) أخرج هذا الحديث بألفاظ متقاربة الحاكم في المستدرك (١/١٧١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩١/١٥).

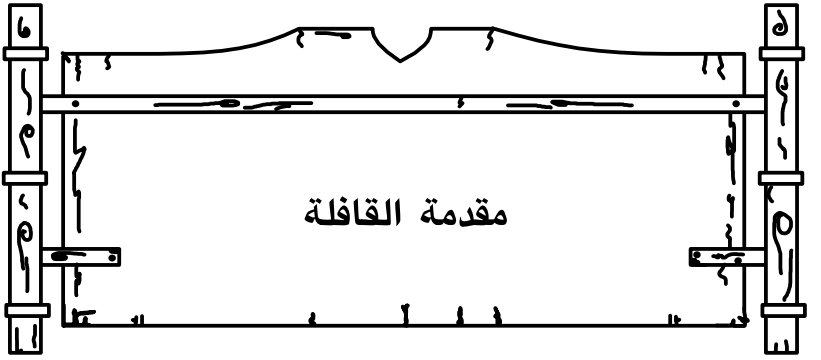

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

«قافلة النور» جيل إيماني رضي الله عنهم ورضوا عنه، عاشوا حياتهم وفق ما يرضى الله تعالى، خلصت نفوسهم من حظ نفوسهم، وحاسبوها على كل صغير وكبير، وزاد تمسكهم بحبل الله فهابهم كل أحد.

جيل رباني، عاش مع الله وإلى الله، ولم تسيطر الدنيا على شيء من أجهزة الإحساس فيهم، بل كانوا هم الموجهين لها.

جيل من السلف صالح لا يميزه أنه لا يخطئ أو يزل أو يضعف، ولا يميزه أنه غير بشري، أو لا يتأثر بالبيئة والابتلاءات التي تحيط به، كلا، إنما الذي يميزه أنه جيل تجلّى فيه الإحسان وغلب عليه الصدق، صدق القول والعمل، صدق الظاهر والباطن، صدق النفس والمشاعر، صدق التوجه والبذل، صدق الإنابة والخشوع، صدق التوبة

والاستغفار، صدق القلب والروح، صدق الإسلام والإيمان، صدق الخشية والإحسان، صدق الدعوة والعلم، صدق الأخوة والأخلاق، صدق الحوار والمجادلة، صدق الطاعة في المنشط والمكره، صدق الشهادة والرؤى، صدق العدل والحق، صدق الجهاد والتضحية، صدق المعاملة والعلاقة، صدق النصيحة والمعاتبة، صدق الحاكم والمحكوم، صدق السراء والضراء، صدق الغنى والفقر، صدق الجماعة والخلوة، صدق الحضر والسفر.

جيل رباني، صدق مع ربه، ومع نفسه، ومع من حوله، فَسَادَ بإحسانه وصدقه الأمم، وسجلت مآثره الصالحة، وأعماله المباركة التي بقيت تراثاً ونبراساً يحتذي به الجيل.

ومن هنا كانت هذه الرسالة المضيئة بضياء أصحابها ـ ﷺ ـ في المواقف والتوجيهات التربوية والدعوية المنتخبة لعدد من أئمة السلف، لنستفيد من دروسها وعبرها.

إنه لن تقوم الأمم إلا على جذورها الطيبة، ولن تبنى إنجازاتها إلا على قواعدها الراسخة، التي تَرَسَّمَ خطاها الجيل القيادي الرباني.

أسأل الله العلي العظيم أن ينفع بهذه المواقف التربوية الدعوية كل من استفاد منها، وأن تكون حجة لنا لا علينا. والله الموفق والمعين.

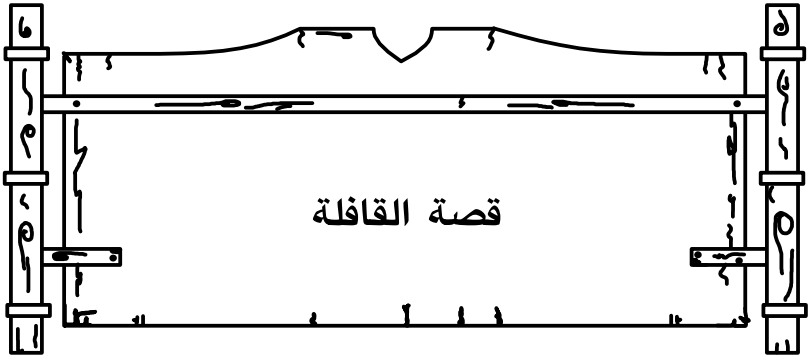

تمتاز القافلة بالحركة والعبور بين الأماكن المختلفة.

ويمتاز النور بضيائه وشعاعه ليرشد الحيارى ويدل التائهين.

وهكذا حقاً كانت «قافلة النور».

بدأت قصتها عندما بدأ العدد الأول من صحيفة «صدى المركز» التي كان يصدرها مركز القدس الصيفي بجدة، واحتلت مكاناً عليّاً، ثم انتقلت القافلة إلى صحف سيّارة «البلاد، المدينة، الجزيرة»، ثم رحلت القافلة إلى مجلات متنوعة، «المجتمع، المنار، الأسرة، الفتيان»، ثم إلى مواقع مختلفة وشاركت في مجالس متعددة، ورحلت بعدئذ إلى ديار متباعدة.

لم تكن القافلة هي التي تسير إلى هذه الأماكن بنفسها، بل قادها أصحابها إليهم؛ لأنهم بأمسّ الحاجة إلى مثل هذا النبع الصافي، والريّ المتدفق، ليجدد الإيمان، ويؤسس معاني التربية الأصيلة، ويعيد الحياة الحقة، ويجاهد

الاسترقاق الشيطاني، والهوى الشهواني؛ ليتأسس المؤمن الحق الذي يسعى أن يكون خليفة الله في أرضه.

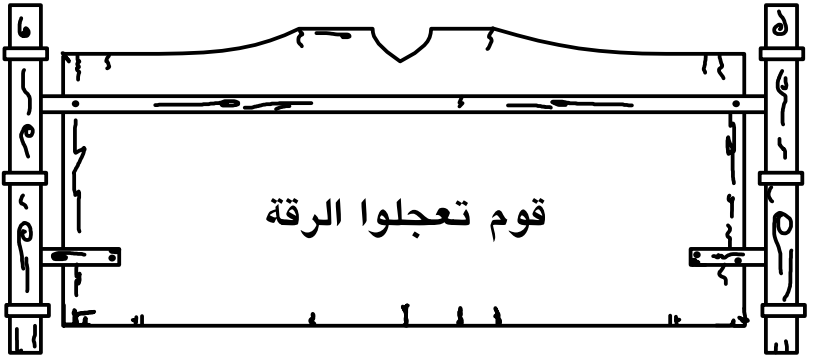

لقد كان معاوية بن قرة أحد التابعين الذين أسسوا منهج الرقة، وطهارة السريرة، وبنوه في نفوس أبنائهم وأتباعهم. فها هو (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) يدخل يوماً مع ابنه إياس إلى مسجد فيه قاصٌّ يقص عليهم، فلم يبق أحد من القوم إلا بكى، غير إياس وأبيه. فلما تفرقوا قال معاوية لابنه: أترانا شرّ أهل هذا المجلس؟ قال إياس: إنما هي في رقة القلوب، فكما تسرع إلى الدمعة فكذلك تسرع إليها الفتنة. فقال معاوية: إنهم قوم تعجلوا الرقة ورجاء الرحمة[1].

دلّوني على هذا الرجل:

وكان معاوية بن قرة يبحث عن رجل رقيق، نقي السريرة، كي يؤاخيه ويلازمه، حتى صرّح بذلك لأصحابه قائلاً: «دلوني على رجل بسَّام بالنهار بكّاء بالليل»[2].

---

(١) الرقة والبكاء، لابن أبي الدنيا (٥٦/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٣٩١/٤).

إن معاوية يبحث عن هذا الرجل وهو في القرن الثاني، وكأنه لم يجد هذا الرجل بين أصحابه لذا فهو يكلف نفسه السؤال والبحث، بل ويرجو من إخوانه مساعدته في ذلك. أفلسنا أولى بالبحث عنه في هذا الزمان؟.

أرزاق الليل:

إن كان في فترة النهار أرزاق توزع من بركة المال والخير. فكذلك في فترة الليل توزع أرزاق الرحمة والأنس بالله. حيث ينزل الرب تعالى، ويأنس العبد بقرب مولاه، ويتلذذ بنداء حبيبه: «**هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له**...»[(١)] فيهمس فيه هذا النداء من الحب والتعلق بالله حتى تقطر الرقة من قلبه، كما تقطر الدمعة على خده.

يَسْرُ في ذكْرٍ وفكْرٍ وفي عُلا　　ومَنْ يَبِتْ عارفاً جانبَ الغَمْضَا

ومن هنا كان معاوية بن قرة يأمر أبناءه أن يناموا مبكرين لينالوا من أرزاق الليل ونفحاته، فيقول لهم: «يا بنيَّ ناموا علَّ الله أن يرزقكم من الليل خيراً». فأين هم دعاة اليوم الذين يهمسون في قلوب أبنائهم وأتباعهم طلب السعي لكسب أرزاق الليل كما يطلبون منهم السعي لكسب أرزاق النهار.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٤)، مسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

*** طريق الرقة:**

وأراد التابعي الجليل مكحول أن يسهل للسالك طريق الرقة بكلمات قليلة فقال: «أرقُّ الناس قلوباً أقلهم ذنوباً»[1] وهي هكذا والله قاعدة ثابتة، واحدة بواحدة، حتى أن فَيَّاض بن محمد تفاعل مع هذا المتن المختصر لمكحول، فأراد شرحه فقال: كان شيخ هاهنا من قريش سريع الدمعة كثيراً، وكان كما علمته من المتهجدين، قليل الآثام، معتزلاً الناس. فذكرته يوماً لبعض علمائنا فقلت: هذا الشيخ طويل الاجتهاد، دائم البكاء فقال لي الرجل: ما ينبغي أن يكون مثله إلا هكذا ندي العينين. فقلت: وكيف ذاك؟ قال: لأن البدن إذا عري من الآثام رق، فكذاك القلب إذا قلت خطاياه سرعت دمعته فَرَقّ[2].

(١) الرقة والبكاء (١/٧٥).

(٢) الرقة والبكاء، ابن أبي الدنيا (٧٥).

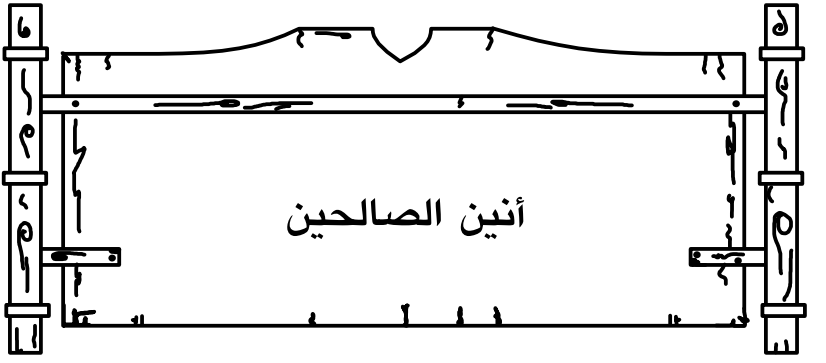

الحياة التي يعيشها الدعاة اليوم حياة قاسية صعبة، وتبرز شدتها وقسوتها في هذا القرن بشكل أعنف وأوضح. ويزداد أنين الدعاة، وتكثر شكواهم مما أحاط بهم من حال قومهم، متذكرين أنّات معاوية بن قرّة باكياً حال قومه وهو يقول لهم: «أدركت سبعين صحابياً، لو خرجوا فيكم اليوم، ما عرفوا شيئاً إلا الأذان!»[1].

يقول هذا ابن قرّة وهو في القرن الثاني فكيف بزماننا؟!.

إنه يرى صوراً جسدية حية، ولكنه لا يرى صوراً روحية ومواقف تدل على حياة المسلمين الحقة سوى الأذان!.

ويتجاوب مع أنين ابن قرّة عبدالله بن خُبيق الذي وصف الحالة التي عليها أبناء زمانه قائلاً: «خلق الله القلوب

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/٢٥٧).

مساكن للذكر، فصارت مساكن للشهوات!». «ولا يمحو الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق»[1].

آه من هذه الثلاثة:

وإذا فسدت القلوب فسدت العلاقات، وانقلبت الأحوال حتى بين المحبين. وهذا ما حدا بأبي حفص النيسابوري أن يُصرّح بحزنه قائلاً: «أكثر فساد الأحوال من ثلاثة: فسق العارفين، وخيانة المحبين، وكذب المريدين»[2].

وكأن هذه الأحوال الثلاثة تكررت مع أبي عثمان رَحِمَهُ اللَّهُ، فشرح كلام النيسابوري بقوله: «فسق العارفين إطلاق الطرف واللسان والسمع إلى أسباب الدنيا ومنافعها، وخيانة المحبين اختيار هواهم على رضا الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يستقبلهم، وكذب المريدين أن يكون ذكر الخلق ورؤيتهم تغلب عليهم على ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ورؤيته»[3].

وهكذا إذا فسدت هذه القلوب وابتعدت عن الله، وجَفَتْ وقست، ينتشر بلاؤها كالوباء في ضمير من يعايشونهم. يقرر هذا الإمام التقي الحارث المحاسبي بقوله:

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (٧٠/١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١٥٠٩/١).

(٢) الرسالة القشيرية، القشيري (٣٢٨).

(٣) الرسالة القشيرية، القشيري (٣٢٨).

«لا يصلح عبد إلا أصلح الله بصلاحه سواه، ولا يفسد عبد إلا أفسد الله بفساده غيره»[1].

وإذا عاش الدعاة في حمأة هذا الجو القاتم، يصاحبون هؤلاء الناس، دونما محاسبة أو حماية فإنهم يعاقبون كما يُعاقب العصاة، ولو وصل أحدهم إلى مقامات عالية من معرفة الله، إذْ إنَّ للمعرفة ضريبة، وللغفلة عنها عقوبة، يوضحها ذو النون المصري بقوله: «لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالى»![2].

بينكم كرام فأكرموهم:

ولما كان جيل الصحابة أطهر قلباً، وأصلح نفساً، كان ذلك بسبب تذكير بعضهم بعضاً بضرورة محاسبة النفوس. فها هو أحدهم يذكر إخوانه قائلاً: «إنَّ معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم ولا تفارقوهم»[3].

---

(١) الجواب الكافي (١٢٧/١).

(٢) تاريخ دمشق (٤١٩/١٧).

(٣) وذكر بهذا النحو حديث أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والتعرّي فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم**». قال الترمذي: هذا حديث غريب. وله شاهد من حديث ابن عباس نحوه، أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٦٠١/١)، وآخر من حديث زيد بن ثابت عند البيهقي في شعب الإيمان (٧٧٣٩). انظر: نصب الراية (٣١٥/٤).

ومتى عاش جيل المؤمنين مكرمين لمن لا يفارقهم صلحوا، فيصلح الله بصلاحهم من سواهم، وإلاَّ فليكن حال جيلنا سبباً لإحدى أنات الصالحين، والله المستعان.

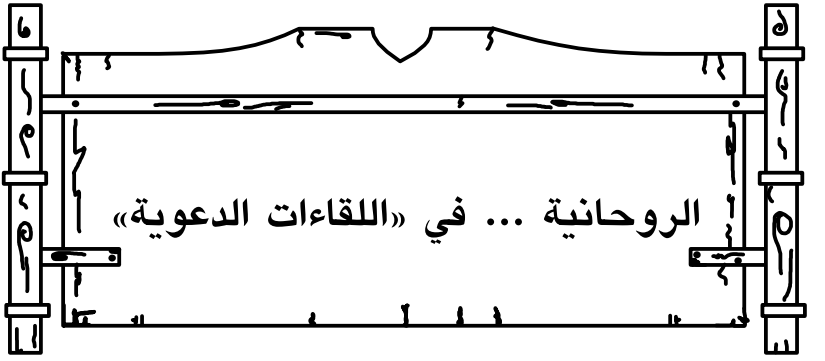

في وقت انشغل فيه الكثيرون بمجالس اللهو، ولقاءات اللغو، المباح منها وغيره ينشغل الدعاة العاملون بما يصلح أنفسهم، ويزكّي قلوبهم، ويوحد كلمتهم، فيلتقون في لقاءات الدعوة والخير لإنشاء جيل صالح يقود الأمم إلى الله تعالى.

ومع كثرة الأعمال والمتطلبات، والنظر في خطة العمل والترتيبات النافعة يحتاج الدعاة إلى وقفة تأمل، ونسمة روحانية، وإشراقة ربانية، تضفي على العمل خصوبة، وتورث في النفس همة.

وهذا المسلك الحميد، والمنهج التربوي العظيم، كان مؤسسه النبي ﷺ؛ فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قَلّما كان رسول الله ﷺ يقوم في مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «**اللَّهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللَّهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا أبداً ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على**

من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»[1].

ما أجمل أن يتأمل الدعاة هذه الدعوات المباركات، فيرفعوا أكفهم في مجلسهم ليحددوا طريقهم، ويتذكروا هدفهم، فيطلبوا المدد والعون من الله سبحانه وتعالى؛ ذلك أنه لن تنجح أي خطوة، ولن تربو أيّ فكرة إلا بتوفيق الله وعونه.

ومع هذا الاستشعار العظيم لمعية الله، تتطور الأفكار، وتعالج المشكلات، وتبارك الأعمال، بالتعاون المثمر والنقد البناء والجد والنقاء، والألفة والأخوة، وهذا ما كان يشير إليه الإمام البنا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ حين علَّم الدعاة هذه الكلمات النافعات: «**اللَّهم إنك تعلم أن هذه القلوب قد اجتمعت على محبتك، والْتقت على طاعتك، وتوحدت على دعوتك، وتعاهدت على نصرة شريعتك، فوثّق اللَّهم رابطتها، وأدم ودّها، واهدها سبلها، واملأها بنورك الذي لا يخبو، واشرح صدورها بفيض الإيمان بك، وجميل التوكل عليك، وأحيها بمعرفتك، وأَمِتْها على الشهادة في سبيلك، إنك نعم المولى ونعم النصير**»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) المأثورات (٥).

إنه لحري بالداعية أن يحفظ هذا الدعاء الملهم، الذي يعبّر عن صدق الدعوة، وحسن التوجه. يذكر الشيخ يوسف القرضاوي ـ حفظه الله ـ أيام سجنه مع مجموعة من المعتقلين من الإخوان المسلمين في مصر، وهم في حالة محنة شديدة، وبلية عصيبة قوله: «لا زلت أذكر دعوات إمامنا في صلاة الليل شيخنا محمد الغزالي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ونحن في السجن، وهو يدعو ربه قائلاً: اللَّهم فكّ بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتولَّ بعنايتك أمرنا، اللَّهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا...»[1]. فيا ليت الدعاة اليوم يضفون على مجالسهم مثل هذه النفحات الإيمانية والدعوات النورانية لعل الله يرحمهم برحمته، وينفع المسلمين بأعمالهم المباركة.

(١) الإخوان المسلمون ومدرسة الإمام حسن البنا، يوسف القرضاوي (١٧).

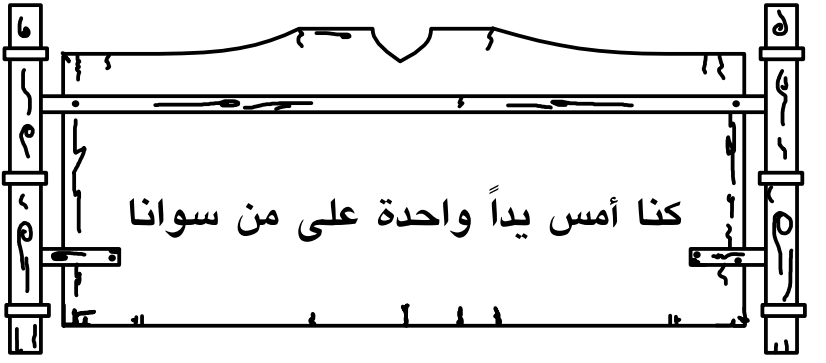

روى الذهبي في السير في ترجمة الصحابي الجليل طلحة بن عبيدالله عن علقمة بن وقاص الليثي قال: «رأيت طلحة بن عبيدالله، وأحب المجالس إليه أخلاها، وهو ضارب بلحيته على زوره. فقلت: يا أبا محمد؛ إني أراك وأحب المجالس إليك أخلاها، إن كنت تكره هذا الأمر فدعه ـ يعني المشاركة في القتال في حادثة الفتنة بين الصحابة ـ فقال طلحة: يا علقمة؛ لا تلمني، كنا أمس يداً واحدة على من سوانا، فأصبحنا اليوم جبلين من حديد، يزحف أحدنا إلى صاحبه»[1].

في هذا الخبر المؤثر، يوضح الصحابي الجليل طلحة بن عبيدالله سبب عزلته واختلائه بنفسه، وعدم رضاه عن الخوض في المشكلات بين إخوانه من الصحابة.

---

(١) انظر هذا وما بعده: سير أعلام النبلاء (٤٦٩/١٠)، تاريخ بغداد (٦٧/٧)، وحلية الأولياء (٣٣٦/٨ ـ ٣٦٠).

ويُعلل سبب هذه العزلة، بأنهم كانوا من قبل يداً واحدة، يتنازل كل منهم عن رأيه للآخر، والنفوس راضية، والأمور تمضي من خير إلى خير. نُواسي جراحات بعضنا وكلنا همٌّ واحد، ونعمل لهدف واحد. نضحي بكل شيء حتى يسلم لنا هدفنا، وتتحقق لنا غايتنا.

ولكنا اليوم، أصبحنا كجبلين من حديد، كأصلب ما نكون في تعاملنا، ولا يتنازل أحدنا عن رأيه، بل ويخطّئ الآخر لسبب أو لغير سبب، بحق أو بغير حق! ولم يعد أحدنا كأمس، يقبل عذر الآخر، ويغفر له زلته، حتى وإن أخطأ عليه. وهكذا مرت هذه الموعظة البليغة، وحصل ما حصل بين الصحابة ﷺ، بعد اجتهاد منهم.

فهل يتدارك العاملون للدعوة أمرهم، ويعيدوا النظر في علاقاتهم مع بعضهم قبل أن لا يستطيعوا ذلك؟!

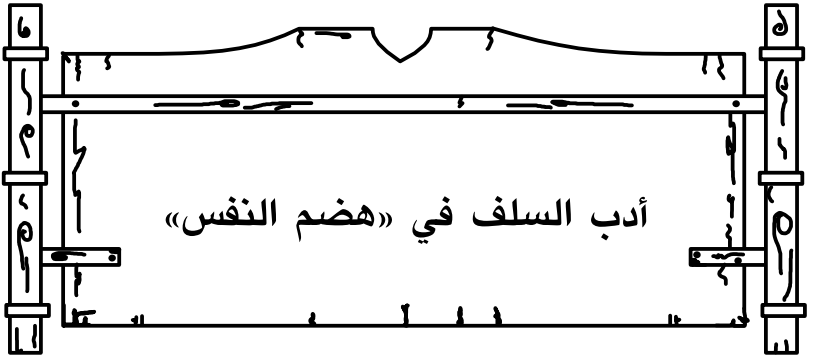

قد يعجز التاريخ حقاً عن أن يصف رجالاً: عظيمة أخلاقهم، طاهرة نفوسهم، عالية همتهم، سامية أهدافهم، عاشوا في الدنيا وهم مدركون لحقيقتها.

لذا تجدهم عاملين للآخرة، مستعدين لها، فهم في حُسن علاقة مع ربهم، وعلى قدر عظيم من الأدب والأخلاق مع الناس. وأمثال هؤلاء الصالحين يخجل والله منهم أبناء الجيل الذين يستمعون لأحوالهم وأخبارهم.

قال أحمد بن ماهان: «سُئل أحمد بن حنبل عن مسألة في الورع، فقال: أستغفر الله، لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلّة بغداد، لو كان بشر بن الحارث، صلح أن يجيبك عنه؛ لأنه كان لا يأكل من غلة بغداد، ولا طعام السواد».

قال الحسن بن محمد بن أعين: «سمعت أحمد بن حنبل يقول: لولا بشر بن الحارث وما نرجو من استغفاره لنا، لكنا في عُطلة».

وقال الحسن بن الليث الرازي: «قيل لأحمد: يجيئك بشر بن الحارث. قال: لا تعنُّوا الشيخ، نحن أحق أن نذهب إليه».

وذكر بشر بن الحارث في مجلس أحمد، فقال: ما كلمته قط.

في هذا الخبر العجيب، تظهر الأخلاق العالية، والآداب الراقية لأئمة السلف.

فالإمام أحمد وهو إمام أهل السنة والجماعة، وشيخ المسلمين في زمانه، يبين مدى افتقاره لاستغفار بشر بن الحارث له، وأنه بسبب دعائه له حصل له الخير، وكان الإمام أحمد يجلُّ بشر بن الحارث، حتى إنه عندما سمع بزيارته له قال: لا تعنُّوا الشيخ!!.

مع أن الإمام أحمد عظيم القدر كبشر بن الحارث، ولكن هذا الموقف يبرز عمق الأدب في نفوسهم، وأن هذا التواضع هو سبب رفعتهم عند الله، ورفعتهم في نفوس الناس.

ومع مكانة بشر بن الحارث عند الإمام أحمد فإنه ما كلّمه في مجلسه قط! بل كان يحضر مجلسه ويكتفي بمجالسته ومشاهدته! وهذا الخبر يوضح لنا أمراً تربوياً مهماً في حياة الصالحين، فهم على شدة تقواهم وعلمهم

وإيمانهم، يعرضون أنفسهم لمجالس الصالحين، ولو بالمجالسة والمشاهدة.

فهل يعي جيل اليوم هذه الأمور؟.

اللَّهم أنت أصلحت الصالحين، فاجعلنا منهم.

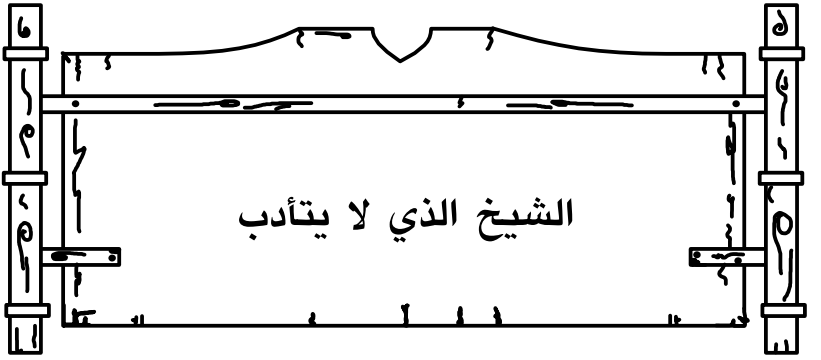

الشيخ الذي لا يتأدب

قصص العارفين بالله، السائحين مع عالم الآخرة، المتمسكين بمنهج الرب جل جلاله، عدد من السلف كثير، ومن الخَلَف قليل ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: ١٣ ـ ١٤].

إلا أن ضعف الشريعة في النفوس، وقلة المراقبة في القلوب، ودوام الغفلات على الروح، أظهر لنا جيلاً غريباً، ونماذجَ مؤسفة، لا أقول تتزيّا بزيّ الصالحين، وتعمل عمل الأشرار الغافلين، بل هي من ركب الطيبين، وممن يُرمز لهم بالشيوخ والواعظين!!.

وكم يعلم الله أنني حزين جداً وأنا أخط كل حرف من هذه المقالة، ولكنها المعذرة لله، والخوف منه، والحذر من مغبات الهوى، وتلبيس الشيطان، وأعوذ بالله أن أقول زوراً، أو أجر إلى مسلم سوءاً، وأستغفر الله لي ولجميع إخواني المسلمين، ولكني في هذا المقام أصدق نفسي وإخواني الحال في بعض ما أرى؛ لنتنبّه أو لنتّعظ ونعظ، ولنكون

القدوة الصالحة الحسنة للعدالة، والشهود في الأرض، ورحم الله الإمام السيوطي عندما قال عن متقدمي الشافعية في تعريف العدالة: «هيئة راسخة في النفس تمنع من اقتراف كبيرة أو صغيرة دالة على الخسة أو مباح يخل بالمروءة»[1].

الشيخ الذي لا يتأدب.. هو ذلك الشيخ المعروف بمشيخته، بهيئته، بمكانته، بإمامته، أو خطابته، أو موعظته، أو تدريسه، أو دعوته، أو إشرافه على أعمال خيرية، أو تصديه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنه قد لا يطبق كثيراً مما يقول، ويخالف ظاهره باطنه!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. ينام عن الفجر والعصر كثيراً، ولربما كان جاراً للمسجد وعذره أنني مريض، أو متعب أو معذور..!!، وكأن الله ابتلاه بالمرض والتعب والعذر الذي لا يُعرف إلا في صلاة الفجر والعصر فقط!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. تطلب منه طلباً فيقول لك: قد بدأت بتنفيذه، ولم يسع في خطوة فيه، ولو عذرته مرة، فإن الوقائع المتكررة لا تعذره!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. حديثه عن النساء وحب العذارى كحديث أبي نواس ومجنون ليلى في نكت ممجوجة يذكرها، أو رسائل هاتفية يرسلها!!.

---

(١) تدريب الراوي (١/١٢٠).

الشيخ الذي لا يتأدب.. يحرم الرشوة بالمائة والألف ريال، ولكنه قد يفكر في العرض المقدم إليه بمليون ريال من الشبهة كيف يستفيد منه في الدعوة؟!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. يغلق الباب على نفسه في بعض الأوقات ليرى مأساة الإعلام الفضائي العربي وما وصل إليه من حال!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. غضوب في كل شيء، كأنه الطفل الذي أُخذت لعبته، أو ضاعت رضَّاعته، أو لم تحمله مُرضعته!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. يصف الزهد والورع والتقوى بَنَفس العارف المتقي البصير، ولو كشف الله السرائر لأبى السلام عليه من يلقاه!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. يَعد ولا يفي، ويغتاب ويشي، ويصوم يوم الاثنين والخميس!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. مريض بعاهات، أو بسرطانات قلبية وجوارحية، من التعلق بالآخرين، إلى الحسد البغيض، إلى ممارسة الحرام في الخلوات!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. شيخ على المنصة، وشيخ على الكرسي، وشيخ في صدر المجلس، وشيخ في الشريط، وشيخ في الكتاب، وشيخ في الحلقة، ولكن:

ومهما تكنْ عند امرئ من خَليقةٍ وإن خَالها تَخْفَى على الناس تُعلمِ!

الشيخ الذي لا يتأدب.. يشتم العلماء بغير برهان، وهو على صحن (الكبسة)، وينتقص الجماعات الإصلاحية بدون بينة وهو يحتسي كوب (القهوة)!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. يمزح كأنه من حارة طائشين، ويضيّع الوقت كأنه من قوم غافلين!!.

الشيخ الذي لا يتأدب.. أخطاؤه متكررة بلا سبب، ومصائبه متسللة بسبب، ولا يُريد أن يدري عنه أحد، وهو لا يسكت عن أحد!!.

وبعد، فأعوذ بالله أن أكون منتقصاً لأحد، أو لامزاً في لفظة «شيخ»، بل هي والله كلمة شريفة جليلة عظيمة لأهلها، ولكني قلت ما قلت لقوم ليسوا أهلاً لها، وما هم بأصحابها، لكي يكفوا الناس شرهم، ويراجعوا حساباتهم، ويعلموا أن الدنيا لا تدوم، وأن الحي القيوم لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، وأنه ليس بينه وبين أحد من خلقه واسطة، وأعوذ بالله من الشماتة بأحد الشيوخ، أو احتمال الاتهام لأحدهم اتهام السوء، وإلا لكنت من أحد الشيوخ الذين لا يتأدبون!!.

*** ومضة: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)**[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً.

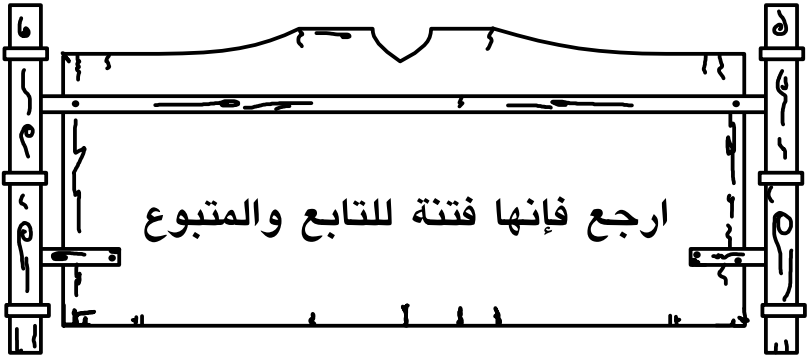

خدمة الصالحين، والسعي لتلبية رغباتهم وحاجاتهم أمر عظيم، وفيه من الأجور ما الله به عليم. وهو كذلك تربية على التواضع، وملء القلب بالحب الصادق لهم، والاستفادة من علومهم وأخبارهم، وروائع الأحداث التي مرت في حياتهم، واتباع لإرشاداتهم ونصائحهم الغالية، التي تختصر الأوقات، وتربي الذات، وتقوّم السلوك، وتدل على طريق الحق والهدى. كما أن بخدمتهم تربية للنفس بالنظر في أحوالهم وعباداتهم وأفعالهم، وقديماً قال أحد السلف: «اصحب من يدلك على الله حاله، ولا تصحب من يدلك على الله مقاله»[1].

(١) شرح الحكم العطائية لابن أبي الدنيا (١/٥٣)، ومعنى العبارة: «أي لا تصحب من لا يرقيك حاله الذي هو عليه لعدم علو همته، بل اصحب شيخاً عارفاً ينهضك حاله بأن تكون همته متعلقة بالله، ويدلك على الله مقاله، لمعرفته بالله تعالى. فصحبة الأخيار أصل كبير في طريق القوم، وأما صحبة الأشرار ففيها كبير اللوم». المصدر السابق بتصرف.

وخدمة الصالحين شرف في الحياة، ورفعة في الدرجات. فمما روي عن الإمام الزاهد بشر الحافي أنه رؤي في المنام، وقد ارتفع في درجات الجنة على أقرانه بكثير، فسُئل كيف تم لك ذلك؟ فقال: «باتباعي للسنة، وخدمتي للصالحين»[1].

ولكنَّ هذه الخدمة المباركة للصالحين اشترط فيها العلماء العارفون شرطيْن مهميْن، تكفل سلامة المقصد، وحسن العمل.

فأما **الشرط الأول**: فهو أن يقصد الخادم بخدمته للصالحين وجه الله تعالى. لا أن يقال إن هذا الإنسان يَسعى لخدمة هذا الشيخ الصالح، وأنه يحرص على تلبية حاجاته، والسعي لإرضائه...!

فيتسلل الغرور إلى نفس هذا الخادم لكثرة الثناء عليه، والفتنة التي تدخل في قلبه.

وأما **الشرط الثاني**: فهو أن تكون الخدمة فيما يرضي الله تعالى، وأن تكون بالحسنى، دونما إطراءٍ عن الحد الطبيعي، أو جفاء، أو سوء معاملة لا تليق بحق الشيخ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٦٩/١٠)، تاريخ بغداد (٦٧/٧)، وحلية الأولياء (٣٣٦/٨ ـ ٣٦٠).

الصالح، كالممازحة الممجوجة، أو التضييق عليه، أو إحراجه، أو تكليفه ما يعسر عليه.

ولقد فطِن لهذه المعاني التربوية الإيمانية الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ﷺ، فقد سار يوماً في المدينة، ولحقه أحد الناس ليتبعه في سيره، وقد بدأ الناس لما رأوه يتوافدون نحوه للسلام عليه، وطلبِ الدعاء منه، فهنا قال ابن مسعود ﷺ للرجل الذي تبعه: ارجع فإنها فتنة للتابع والمتبوع[1].

وهكذا يعرفنا الجيل الأول كيف يتعاملون في مثل هذه المواقف، التي تؤدي إلى حدوث الفتنة في القلب، ولو كانوا من أكثر الناس صلاحاً، وأبعدهم عن زخارف الدنيا وأهوائها.

إنه مع جلالة قدر ابن مسعود ﷺ، وعظيم زهده وورعه، لم يكن مسوغاً له ذلك أن يأذن لذلك الرجل باتباعه في طريق عام. فخشي ﷺ من الفتنة التي تتشربها النفوس، ويصعب بعد ذلك معالجتها. فكان جوابه صريحاً واضحاً لذلك الرجل، حتى يرجع من طريقه؛ لئلا يُفتن التابع فيراه الناس حول ذلك الشيخ الصالح، وكأنه من المقربين، وأنَّ له الحظوة الكبرى عنده!، ولئلا يُفتن المتبوع كذلك فيجتمع الناس حوله فيغتر بنفسه، وينسى آخرته.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٦٠)، وإحياء علوم الدين للغزالي (٣/٣٢٦).

إنها اللفتات التربوية التي لا تخفى على أصحاب النفوس السليمة، وأرباب المقامات العالية، ويتجذّر فهمها في قلوب الدعاة والمربين في أنفسهم، ومع أتباعهم وتلاميذهم. نسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين.

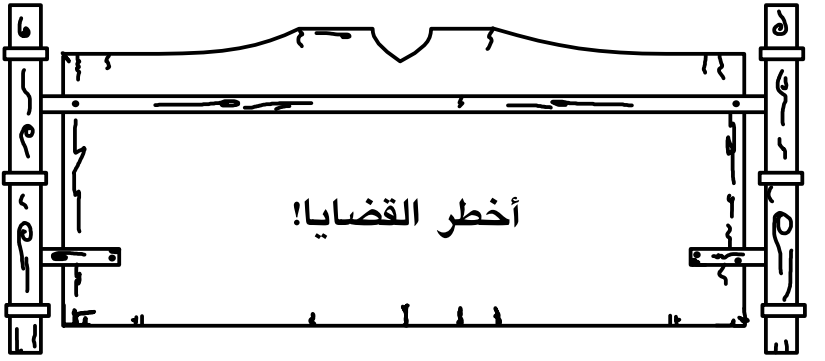

الداعية الفطن هو الذي ينتبه لأخطر القضايا في حياة من يدعوهم إلى الله، وأكثر هذه القضايا خطورة وحساسية قضية الإخلاص.

ولذا تجد هذا الداعية مراقباً جيداً لأعمال من يدعوهم إلى الله، حريصاً على أن يتقنوا العمل، ويبتعدوا عن أي شائبة تشوب أعمالهم.

ولقد وعى هذا المعنى العميق أحد السلف (إذ مرَّ يوماً برجل ساجد قد أطال السجود، وهو يبكي، فضربه برجله، وقال: يا لها من سجدة لو كانت في بيتك).

وعن رجاء بن حيوة (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أنه نظر إلى رجل ينعس بعد صلاة الفجر، فقال: انتبه لا يظنوا أن ذا عن سهر!

إنه يعلمه دقائق الإخلاص، ومداخل الرياء على النفوس، ولا يعجب أن يرى أتباعه وتلاميذه يبكون ويرتفع نحيبهم، ويحكم عليهم برقة القلب، وشفافية النفس! لا، ولكنه يذهب إلى أعمق وأبعد من هذا؛ إنه حريص على أن

لا يتخلل النفوس داء الرضا عن النفس، لكثرة بكائهم، وطول سجودهم.

وهذا لا يعني إغفال جانب الرقة والروحانية في نفوس التلاميذ والتأكيد عليها؛ لأن الرقة رحمة من الله للعبد. إذ كم نحن في هذا الزمن بحاجة إلى نفوس رقيقة تدل على الله بحالها ولكنها الذكرى بصلاح العمل، والسعي لقبول الله له. ورحمة الله على أحد السلف إذ قال: (اصحب من يدلك على الله حاله، ولا تصحب من يدلك على الله مقاله)[1].

اللَّهم أنت أصلحت قلوب الصالحين، فاجعلنا منهم.

(١) شرح الحكم العطائية لابن أبي الدنيا (٥٣/١).

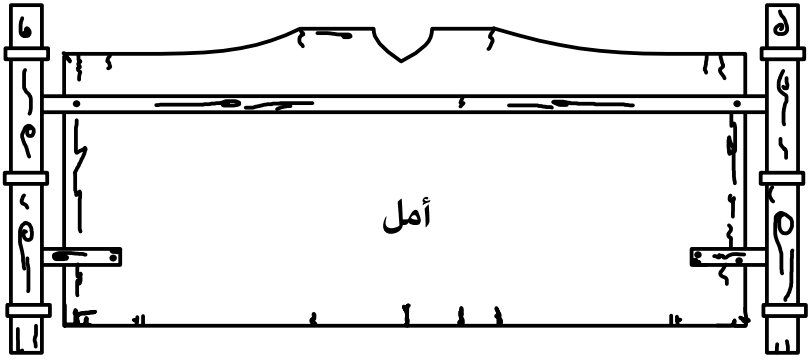

كل الناس في هذه الدنيا لهم آمال يرجون تحقيقها يسامرون بها صحبهم ويسهرون بها ليلهم وتشاركهم في أحلامهم وخواطرهم.

ومن هؤلاء الذين كانت لهم آمال يودون تحقيقها الإمام عبدالله بن أبي جمرة إذ ساوره أمر جعله يعيش لأجله، ويدعو لتحقيقه في كل مكان يذهب إليه، وكل مجلس يجلس فيه. وبعد أن طاف هذه المجالس وخَبِر الناس وعاصرهم كان له أمل كبير وأمنية ود لو أنها تحققت، عبّر عنها بقوله: «وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أنه يعلّم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا؛ فإنه ما أُتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذل وحق والله لابن أبي حمزة أن ينادي بهذا» وذلك لمّا رأى قلة من يذكر الناس بتصحيح النيات. فكم من أعمال وعبادات تحولت إلى عادات؟ وكم من عمل صغير استحضر صاحبه النية الصالحة فبلغه الله بهذه النية أعلى

المنازل؟ وكم من عمل كبير عظيم شابت صاحبه شائبة فذهب أمره وضاعت حسناته؟!. وصدق الإمام أبو عبيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بعدما سمع حديث النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[1]، إذ قال: ليس في الأحاديث أجمع ولا أغنى ولا أنفع ولا أكثر فائدة منه.

ولذا فإن الله سبحانه وتعالى يعطي العبد على قدر نيته الصادقة، وإن لم يقدر على فعل ما نوى. ففي الحديث: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[2].

وفي الحديث: «**ما من امرئ تكون له صلاة بليل فغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه**»[3].

وفي الحديث الآخر: «**إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهو له صدقة**»[4]. فهل يحقق رجال الدعوة أمل ابن جمرة؟ نرجو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٠)، والترمذي (١٦٥٣)، والنسائي (٢٦/٦)، وابن ماجه (٢٧٩٧) عن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٤٥) وغيره.

(٣) أخرجه النسائي (٢٥٧/٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في صحيح النسائي (١٧٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢) عن أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

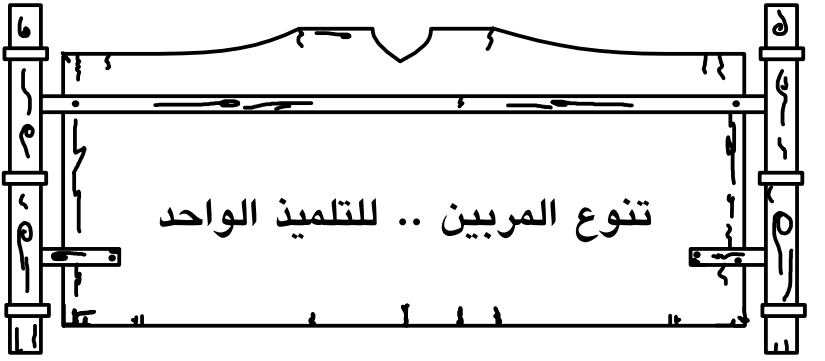

القدرات والطاقات، وتحصيل العلوم والمواهب، أمور يهبها الله لمن شاء من عباده.

ومن حكمة الله تعالى تفضيل بعض الناس بأمور تندر في غيرهم.

وقد يختص الله إنساناً بموهبة ويسلبه غيرها.

والتلميذ النبيه، والمدعو الفطن، يحرص على التلقي بالمربي الواعي، الذي وجد فيه الكثير من المعارف التي تشبع رغبته في العلم، والأدب وحسن الأخلاق، ورجاحة العقل والخبرة الواسعة، وحل المشكلات . . . إلى غير ذلك من الصفات المتميزة.

ولكنَّ هذا التلميذ قد تتوق نفسه أثناء الطلب والتحصيل، والتعلم لأمور الدعوة إلى مربٍّ آخر، أعمق علماً، وأزكى فهماً، من معلمه ومربيه الذي يأخذ منه.

والأمر لا يتجاوز عند التلميذ سوى زيادة العلم، مع

ثقته وحبه لمعلمه ومربيه الأول، فهل يسوغ له هذا الأمر أن يأخذ من مربٍّ ومعلم آخر، أم إنه لابد أن يكتفي بمعلمه ومربيه الأول، على أنَّ ما يأخذه منه فيه الكفاية والمصلحة؟.

عن هذا التساؤل يجيب الإمام النووي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بقوله: «وليحذر المقرئ (المعلم) من كراهية قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بينة من صاحبها على سوء نيته، وفساد طويته، بل هي حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله، فإنه لو أراد الله تعالى بتعليمه لما كره ذلك، بل قال لنفسه: أنا أردت الطاعة بتعليمه، وقد حصلت، وهو قصد بقراءته على غيري زيادة علم، فلا عتب عليه»[1].

ومن هذا الجواب المفيد، والنص التربوي الفريد، نستنبط ما يلي:

١ ـ أن المعلمين مختلفون في علمهم وفهمهم، فلا مانع حينئذ من أن يستفيد التلميذ من أكثر من معلم ينفعه.

٢ ـ أن على المعلم أو المربي الذي يوجه أحد تلاميذه إذا رأى منه زيادة حرص، وقوة فهم، وقدرة على التعلم والحفظ أن يقوم بإرشاده إلى المعلمين الذين يرقى بهم،

(١) انظر: مقدمة المجموع شرح المهذب (٢٣).

وينتفع بما لديهم، قبل أن يبادر التلميذ بنفسه، فلا يميز بين القوي والضعيف.

٣ ـ أن على المربي أو المعلم أن يستزيد من العلم والمعرفة، ويطور من إمكانياته حتى يحبه التلميذ، ويأنس برأيه. أما إذا فقد التلميذ من معلمه حسن التوجيه، والرد على السؤال، وضعف التربية والتعليم، فإنه سيلجأ حتماً إلى غيره.

٤ ـ إيمان المعلم والمربي بأن غيره قد يفوقه في جوانب مختلفة، يهواها ويحبها التلميذ، فمن هنا كان لزاماً عليه إعانة تلميذه على تلبية رغبته، وهذا من حسن التوجيه.

٥ ـ أن تنوع المربي بالنسبة للتلميذ أمر حسن، ولكنه مشروط بأمور منها:

أ) ضرورة تربية التلميذ وصقله على حسن الأدب مع جميع المعلمين، ووعيه وفهمه للمعاني، واختلاف وجهات النظر.

ب) ألا يكون توجيه التلميذ لبعض المربين من باب الترفه، وزيادة أعداد المعلمين، بل يكون المقصود توجيهه لمصالح وأهداف تعينه في مستقبله بإذن الله.

ج) أن يتعلم التلميذ وجوب الإحسان لمعلميه، وعدم إنكار الجميل لكل من علمه ولو حرفاً، فكيف بمن انتشله من الشر، وبصّره بطريق الحياة الحقة؟.

كاتبان شهيران، وخطيبان بارزان، وقارئان مرتلان، وواعظان مؤثران، وإداريان ناجحان، ومعلمان بارعان، قلَّ أن يَسْلَم أحدهما من حسد لأخيه، خاصة إذا كانا في سن متقاربة، وبينهما صلة ومعرفة على وجه الخصوص.

ولأن الله سبحانه وتعالى فضل بعض الناس على بعض، فقد تبرز جوانب ومواهب من الإبداعات عند بعض الناس دون غيره، وهذا من فضل الله على العبد، قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

ولأن الشخصيات الآنفة الذكر يكثر الحديث عنها في المجالس والأوساط العامة بين الناس، فإن أحدهم يحب أن يُسمع عنه كل كلام يرضيه، وكلَّ مدح يدفعه في جانب ما يتميز ويعرف به، فإذا ما ذكر ندٌّ له بارع في مجاله فإنه قد ينتقصه، ويقلل من تأثيره ـ بغير حق ـ ولا ينجو من هذا البلاء إلا القليل، كما قال الإمام الحافظ ابن حجر ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ:

(وما ينجو من كلام الأقران، وما ينتج عن ذلك من تحاسد إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من العصور سلم منه أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين)[1].

والحسد بين الأقران هم وغم، وسوء صنيعة، وقلة فهم، ومدخله غريب، وأثره عجيب!.

يصلح أحدهم نفسه للناس ليتميز، ويبين إبداعه، وكثرة من يشكره، ويثني عليه من الناس، علَّهم يعرفون قدره فيمدحوه، وقد ينتقصُ أخاه في موقف أو زلة بكلمة ما، هذا الأسلوب من لعب الشيطان به. لأن هذا الحاسد لم يجد إلا هذه الكلمة الانتقاصية على لسانه ظاناً بذلك أنه يريد إظهار الحق، وبيان الصواب، بينما السبب في ذلك هو مرض في النفوس، وعدم تربية لها، وكذلك عدم خوف من الله على نفسه وعباده.

وأخطر ما يكون هذا التحاسد بين الصالحين ورجال الآخرة، وليس هذا بغريب، فهم بَشَر كغيرهم، لكن العجب هو استمرار هذا التحاسد المذموم، والعمل المرذول، الذي لا يقدّم لهم شيئاً.

وثمة خطأ يقع فيه بعض الصالحين كذلك هو المدح الكبير والثناء العريض، على كتابة كاتب، أو خطبة خطيب،

---

(١) لسان الميزان (٢٠١/١).

أو جمال صوت قارئ، أو إبداع معلم، أو إتقان مدرب، بأوصاف لهم أمام غيرهم ممن عُرفوا بذلك التميّز في أحد الفنون السابقة، وهذا أمر لا ينبغي أن يحدث حتى لا يتسلل الشيطان إلى النفوس فيضعفها، والمرء مأمور بالثناء الجميل، وأحسن كلمة يقولها: (جزاك الله خيراً) فقد أبلغ بالثناء، كما قال ﷺ[1].

والمؤمن الحق، والداعية الرباني، هو الذي تصفو نفسه عند ذكر غيره من أقرانه، فيدعو له بأن يفتح الله على يديه قلوب الناس، في كلماته، وكتاباته، وإنتاجاته، وسيردُّ له المَلَك ذلك بالمثل. إن هذه المواعظ لا تستقر إلا في قلوب المؤمنين، الذين طهرت قلوبهم، وتنبهوا لمداخل الشيطان على نفوسهم، وكانوا شديدي المحاسبة لها.

فأنتَ أنتَ بما أُوتيت من مواهب وملكات، إذا لاقت عرضاً حسناً، وقلباً نظيفاً، أما من علّق نجاحه على المقارنة الدائمة بالآخرين ـ من غير هدف سوى الحسد ـ فقد ضلَّ السبيل، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً!!.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٤١٣) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء**». قال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

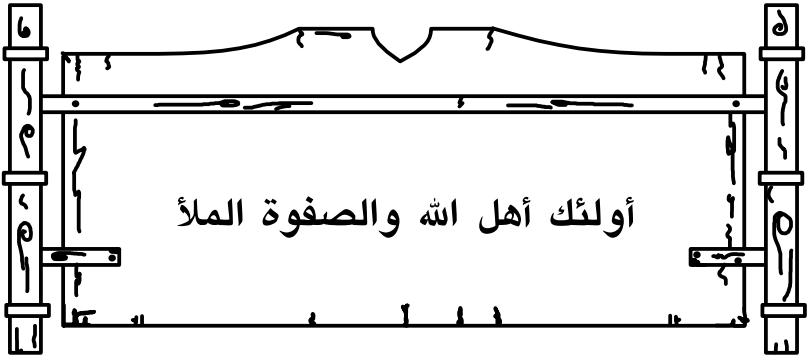

تحتاج كل قافلة تسير عبر الصحراء القاحلة والطرق المقفرة إلى الدليل والمرشد الذي يهديها السبيل، ويعرفها أماكن الخطر. فلا يسمح للقافلة أن تستريح في هذا المكان الخطر؛ لكي لا تؤذى أو يسلب ما معها من خيرات؛ فتهلك في مهاوي الصحراء.

وقد يدرك مرشد القافلة بثاقب بصره، ونور فراسته، من خلال بعض المؤشرات والإرهاصات أموراً قد تنفع القافلة فيحثهم حينئذ على سرعة الانطلاق. وقد تكون أخرى ضارة كزوبعة رملية لربما تدوم فترة في المنطقة التي سيرحلون إليها فيهدّئ من سير القافلة.

وهكذا، فإن طريق الدعوة يحتاج إلى هذا الصنف من البشر، والذين اشترط فيهم الشيخ الزاهد أبو شجاع الكرماني جملةً من الصفات بقوله: «من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسكَ نفسه عن الشهوات، وعمَّرَ باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة، وعوّد نفسه أكل الحلال لم

تخطئ له فراسة»[1].

وقوم يتصفون بهذه الصفات الصعبة على النفوس، يستحقون أن يكونوا من أهل الله الذي لا يخيب سعيهم، ويتولى الله حمايتهم، وينفع بسببهم القافلة عن طريق فراسة يتفرسونها فيفتح لهم بابَ خيرٍ لم يعرفوه، أو يحذِّرهم من خطر لم يتوقعوه!

ألا ما أشد حاجة رجال العمل في الدعوة إلى أمثال هؤلاء المصطفين! ولتكن تلك الصفات التي دعا إليها الشيخ الكرماني ضمن منهج التربية العملي الأساسي لجيل الدعوة.

(١) إغاثة اللهفان (٤٨/١).

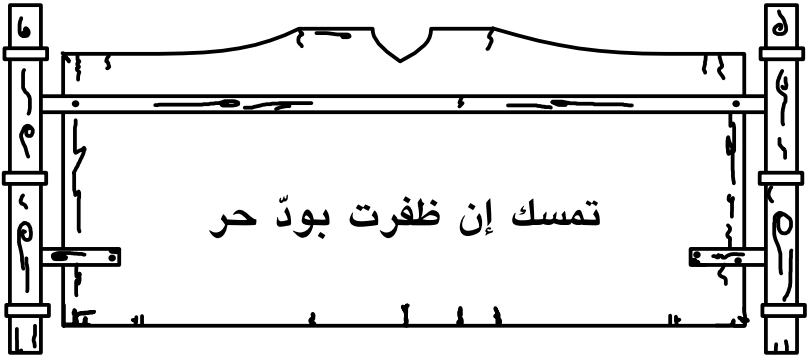

قليل من الناس يعيش في الدنيا متحرراً من القيود المحيطة به، فأكثر الناس تجدهم منساقين نحو أنماط من السلوك خاطئة، بل ومحرمة؛ لأنه يفعل هذه الأعمال متبعاً جملة من البشر، حتى يصير هذا التقليد شعاراً له في حياته. فينافح ويدافع عن الخطأ، وهو معترف به ومقر له، ولكن كيف يسوغ له أن يخطّئ نفسه أمام الناس؟ كما أنه يحب سماع أخبار الناس الخاصة والتي فيها نوع من الأسرار، لمجرد السماع والإمتاع!. ولذا ضبط الإمام الربيع بن الخيثم قاعدة لصنف من الناس هذا حالهم بقوله: «لو نظر الناس إلى عيوبهم لما عاب إنسان على الثاني»، وقيل له: يا أبا يزيد. ألا تذم الناس؟ فقال الربيع: «والله ما أنا على نفسي براضٍ فأذم الناس، إن الناس خافوا على ذنوب الناس وأمنوه على ذنوبهم»[1].

(١) النور السافر لابن أبي الدنيا (١٩٩/١)، وروي نحوه عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي هذه الحكمة البليغة يؤسس الإمام الربيع بن الخيثم في نفوس الناس أهمية التفكر في عيوبهم وأخطائهم، وعدم الاسترسال في الحديث عن أخطاء الناس وزلاتهم، وكأنه يذكر الأمة بعدم إباحة الكلام فيما لا حاجة فيه؛ إذ أن بعض الناس وإن كانوا من أهل الصلاح إن فُتح لهم باب الحديث عن خطأ إنسان فإنهم يطيلون النقاش حول هذا الخطأ، ويجرون أثناء كلامهم هذا أخطاءً صدرت منه قديماً لا علاقة لها بهذا الخطأ! وهذا عيب. ولذا عندما جاء أحد الناس للإمام الربيع فقال له: ألا تذم الناس؟ فقال: ما أنا على نفسي براضٍ فأذم الناس.

وفي هذا الموقف يتضح التجرد الكامل عن حظوظ النفس، حتى وإن كانت العوامل مهيأة للرد، والحديث عن أخطاء الغير.

إن هذا الصنف هم المتجردون من القيود المحيطة بهم، وهم الأحرار حقاً في الحياة. فلا يتكلم أحدهم إلا بما فيه الحق ولو كان مراً. سواء في إنسان تُكلِّم فيه، أو كتاب عُرض عليه، أو طائفة ذُكرت له، حتى وإن كان هذا الإنسانُ المُتَكَلَّمُ فيه ندّاً له وعدواً له، وحتى إن كان مؤلّف الكتاب لا يروق له أو من غير فكره!.

فالربيع بن الخيثم وإن كان خصماؤه يتكلمون فيه، إلا أنه لم يجد هذا مقنعاً لذمهم وتعييرهم.

إن منهج الربيع بن الخيثم قليل أنصاره حتى من جيل الأخيار، لكنهم هم الموفقون الأحرار.

فكن أنت أحدُ المتخرجين في مدرسة الربيع لتكون مؤمناً حُراً موفقاً.

تـمـسـك إن ظَـفـرتَ بـودِّ حُـرٍّ فـإنّ الـحُـرَّ فـي الـدنـيـا قـلـيـلُ

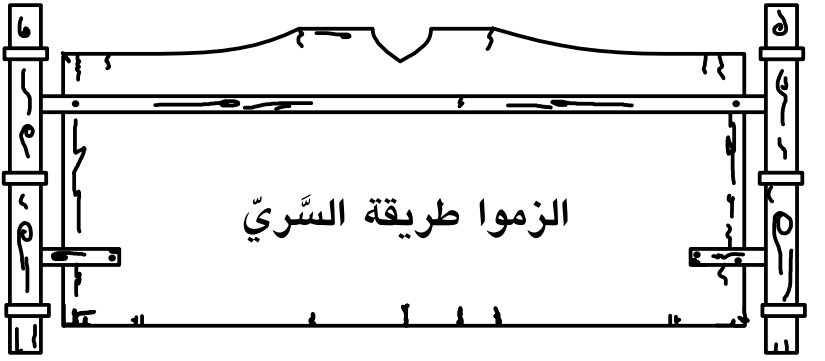

إذا أكرم الله الفرد بالهداية، والتوفيق للعمل الصالح فإنه كثيراً ما ينشغل بجمع الحسنات، والتفكر الدائم بالسيئات، فهو ما بين طاعة وصلاة نافلة، وإنفاق لمال، ومساعدة لمحتاج، وقراءة القرآن، وحضور لمجالس الذكر، والاستئناس بالصالحين.. إلى غير تلك الأعمال الطيبة المباركة.

ومع الاختلاط بإخوانٍ له في العقيدة والدين، يُفاجأ بكلمات التحذير، ونبرات التبرم والتنبيه على بعض من كان يسمع لمواعظهم، أو يقرأ القرآن معهم، أو ينهض بنصائحهم، بأنهم قوم ضلالة، وعقيدة ناقصة، فهم متلوثون بالصوفية، وقليلو العلوم الشرعية، ومنحرفون عن الجادة والصراط المستقيم!!.

وكل هذه الدعاوى نتيجة الأهواء التي طغت على القلوب، ونقضت عُرا الإيمان ومنها الحب في الله.

ولو تمثل صاحبها بالعلم الشرعي حقيقة لقرأ عن سلفنا ما تدمع له العين:

فقد روى ابن أبي شيبة[1] بسنده أن علياً ﷺ سئل بعد موقعة الجمل عن أهل الجمل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا. قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا.

فإلى إخواننا هؤلاء.. إن لم تكفوا عن ذلك، فاحفظوا ما بقي من دينكم وكونوا كالسَّريّ السقطي على فرقٍ بينكم عظيم، فقد قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعتُ السَّريّ السقطي ﷺ يقول: «لولا الجمعة والجماعات ما خرجتُ من بيتي، وللزمت بيتي حتى أموت»[2]. فالزموا بيوتكم أنتم حفاظاً على ما بقي لكم من الدين!.

(١) المصنف (٣٧٧٦٣).

(٢) صفة الصفوة (٢/٢٨٣).

الإنسان الذي تعرف على ربه حق المعرفة يمضي في الحياة بقلب يقظ، وسريرة نقية، وتقوده جوارحه للأعمال الصالحة وقد ألينت له.

فإذا تكلم تذكر أن الله يسمعه فيقول الحق وإن كان مُرًّا، ويتحرى الصدق وإن كان صعباً، وإذا نوى عملاً تذكر أن الله يعلم ما في نفسه ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥]، فهو في مجاهدة دائمة لإصلاح سريرته والإخلاص في أعماله لربه، فلا يرضى لنفسه ذكْر أعمال صالحة كانت بينه وبين الله للناس، ولا يراه الله حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره.

وإذا نظر للغادين والرائحين وصور الخلق المنتشرة في وسائل الإعلام المختلفة يقتصر نظره على الحلال منها فحسْب ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤].

وإذا جال بفكره وحديث نفسه تذكر اطلاع الله عليه؛ فيسد منافذ الخواطر السيئة؛ إذ هو بشر يجب عليه مجاهدة

نفسه في ذلك، كما يفتح لقلبه منافذ الخير؛ فيتفكر في حقوق بينه وبين ربه فيرجوه العفو عما كان، كما يتفكر في وسائل ومشاريع يضيفُ فيها لَبنات نافعة لجيله وأمته.

إن هذه المعاني التربوية والأسس الإيمانية كان يربي عليها التابعي الجليل القدوة الربيع بن خيثم الثوري إخوانه، فقد قال لرجل يوماً: لا تلفظ إلا بخير فإنَّ العبدَ مسؤول عن لفظه يُحصى ذلك عليه كله ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: إذا تكلمتَ فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممتَ فاذكر علمه بك، وإذا نظرتَ فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرتَ فاذكر اطلاعه عليك؛ فإنه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

(١) صفة الصفوة (١٦٢/٤).

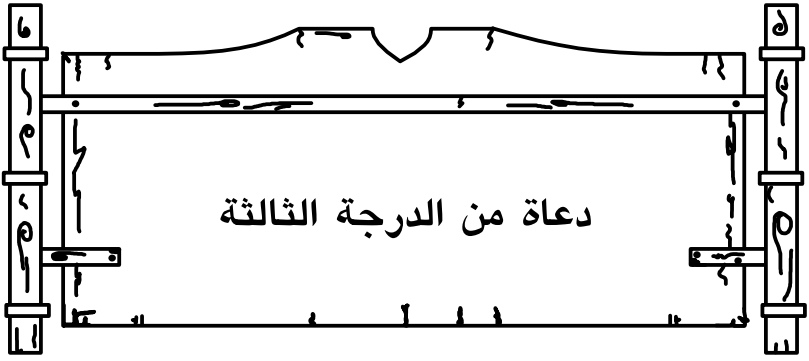

الدعاة إلى الله هم صفوة الخلق، وسادة البشر، وخيرة الناس، يرشدون وينصحون، ويصلحون وَيعْمُرون. يبذلون الغالي والرخيص، وينفقون زهرة حياتهم خدمة لأمتهم وأوطانهم، فيكفيهم شرفاً ثناء الحق جل جلاله عليهم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

ومع ذلك فهم بشر كغيرهم، يصيبون ويخطئون، ويُقوّمون ويُسدَّدون، ويعتريهم النقص والخلل، وتمر بهم لحظات ضعف وغفلة. وحتى لا ترسخ هذه العبارة الجميلة «داعية» في أذهان من يتعاملون معهم فيلحظون الخلل تلو الخلل، لذا كان لزاماً على أفراد الدعوة إلى الله أن يُذَكّر بعضهم الآخر، بالأمانة والمسؤولية التي على عنق كل واحد منهم، وأن يحافظوا على هذا الاسم المؤثر «داعية»، وأن يصونوا أنفسهم، ويحترموا إنسانيتهم، ويتعاملوا بالحق مع الخلق.

وحتى لا تتكرر الوقائع، وتتفاقم المأساة عند بعض الدعاة الذين هبطوا من الدرجة الأولى إلى الدرجة الثالثة أو الرابعة في سلم القبول والتأثير والقدوة بين الناس. ولخطورة إهمال الخلل في حياة الصالحين كان جيل التربية الأول حريصاً على النصيحة والتوجيه، فعن أبي بكر بن سليمان عن أبي حثمة قال: «إنّ عمر بن الخطاب فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح، وإنَّ عمر غدا إلى السوق، وسكنُ سليمان بين المسجد والسوق، فمرَّ على الشِّفاء أمِّ سليمان فقال لها: لم أرَ سليمان في الصبح، فقالت: إنه بات يصلي فغلبته عيناه، فقال عمر: لأن أشهد صلاة الصبح في جماعة أحبُّ إليّ من أن أقوم ليلة»[1].

وها نحن نذكر بهذه الصور والمشاهد التي تقلل من سمعة الداعية الشريف إلى مستوى هابط قد يشاركه فيه عوام الناس، أو أن يتدلى في بعض الأحيان قليلاً!!.

ومن صفات الداعية الذي هو في ركب الدرجة الثالثة:

١ ـ عدم الوفاء بالعهد والوعد مع أهله خاصة والناس عامة.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٩٤) وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٢٣) موقوفاً على عمر ﷺ. قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: «صحيح موقوف» (٤٢٣).

٢ ـ لا يوقظه صباحاً إلا صياح الأطفال في طريقهم للمدارس، أو أصوات السيارات في زحمة الشوارع، ولذا هو في زمرة الشيطان الذين بال في آذانهم.

٣ ـ إذا خلى بمحارم الله انتهكها. فالنظرة الأولى عنده تستمر دقيقة، ينظر للمجلة الفاتنة، والبرنامج المصور الفاسد، والمقابلة الهزيلة الرخيصة، ولربما لا يتمعر وجهه إن رأى هذا في بيته أحياناً.

٤ ـ يُثني على أعماله وهي ركيكة، ويُفّخم من قدراته وهي ضعيفة.

٥ ـ يتلاسنُ مع هذا وذاك، في كل كتاب صدر، وكل برنامج ظهر، لا يذكر من الكتاب أو البرنامج إلا الشيء الأغبر!.

٦ ـ يدعو للتعاون الدعوي وهو صاحب رأي متصلب، ويرنو إلى المودة وفي مشاعره وقود على كل من خالفه أو ناقشه!.

٧ ـ يطالِب ولا يحب أن يُطالَب، ويَرفع صوته ولا يحب أن يُرفع عليه صوت، يقرر ولا يستشير، ويأمر ولا أمير!.

٨ ـ موقعه في آخر صفوف الصلاة، ومورده الصحف

والمجلات والفضائيات. لم يسمع عن النووي إلا من درس العصر، ولا عن الأذكار إلا حصن المسلم المركون في دولاب المكتبة العريضة!.

٩ ـ نبرته «هناك خلل»، «هناك تغيّر»، «هناك قصور»، يكلّف الآخرين ولا يرضى بتكليفه بأي مسؤولية، يقول لنفسه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾، ولا يقول لها: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

١٠ ـ أفكاره متداخلة، وأعماله متضاربة، كل يوم هو في شأن. يوماً يمانٍ إذا لاقى ذا يمن وإن لاقى معدياً فعدناني.

١١ ـ عمل اليوم يؤجل للغد، وعمل الغد إلى ما بعد الغد.

١٢ ـ إما أن يعمل حتى يفتر، مشغولاً بالليل والنهار، في كل عمل صالح يراه، حتى ينسى نفسه وأهله وحقوق إخوانه، وإما أن يفتر فلا تعرف له سبيلاً، ولا تجد له مدخلاً!.

١٣ ـ عقليته على حسب الجو العام، وموجات المد والجزر، إن قرأ كتاباً أدبياً لمست منه الحنان والعطف ولا تلبث أن تزول، فإذا قرأ في أصول الفقه رأيت عقلية المنطق والحوار والإقناع، وإن جال في الفكر رأيت أسلوب المتحدث لكوكب المريخ تقعيداً وتأصيلاً ومناقشة!.

١٤ ـ أوراق في السيارة، وأخرى في المكتب، وثالثة في الجيب، ورابعة على الثلاجة!

وإن أردت شيئاً منها فاتصل على الرقم ليردَّ عليك: لا يمكن الحصول عليه الآن، فضلاً عاود الطلب في مرة أخرى وشكراً!.

١٥ ـ نقّال للفتاوى دون تمحيص، وكلما سُئل لماذا فعلت كذا أو قلت كذا، قال: سمعت، وقيل، وروي!!.

١٦ ـ تصنيف الدعاة عنده كتصنيف «الحبحب من الخربز». من الشكل والتعليق والصحبة، فيأخذ ما كدر ويترك ما صفا.

١٧ ـ يعقد الأمور السهلة، ويسهل الأمور الصعبة، ويتمنى كل شيء في لحظة.

١٨ ـ يروي لك أخباراً غريبة وعجيبة عن الدعاة كأنه حضرها لحظة بلحظة، وما له منها إلا خبر في إنترنت، أو استراق سمع في مجلس!.

١٩ ـ يعرف عن شيخ الإسلام أنه فقيه ولم يقرأ له كتاباً واحداً، ويعلم عن الشيخ فلان أنه قال مسألة أخطأ فيها ورد عليه فلان، . . . وهكذا. معلومات لا تنفع ولا تضر، ولا يدر أصلاً عن حقيقة المسألة أين هي؟.

٢٠ ـ يُحَضّر الدرس في آخر ساعة، ويَحْضُر اللقاء في آخر القاعة.

٢١ ـ شيخ في التنظير، فقير في التطبيق.

٢٢ ـ يظن أن الناس على غباء وبساطة، فيوسع لنفسه الفتاوى، ويحسب نفسه مجتهداً.

٢٣ ـ فيه بساطة تصل به إلى الاستغفال والخسارة من الآخرين.

٢٤ ـ طالب علم ولكنه لا يحضر الدروس، وشيخ ولكنه لا يعرف معنى ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

٢٥ ـ داعية سهر وسمر، ورفيق مخدة قبل السحر!.

٢٦ ـ يتبارى بعامي الألفاظ، وربما تسامح بشيء من رذائل العامة!.

٢٧ ـ آخر كتاب قرأه قبل ستة أشهر، وآخر ختمة تلاها في رمضان، وآخر جلسة إشراق لا يذكرها تماماً.

٢٨ ـ يحدثك بالأخبار كأنه محلل سياسي، وينقل لك الوقائع كأنه خبير عسكري، وهو لا يدري ما علاقة التين والزيتون بطور سينين!.

٢٩ ـ يقول لك عملنا وقمنا، ودرسنا وخططنا، ووصلنا وخاطبنا، وهو لوحده الذي يعمل إن كان قد بدأ بالعمل!.

٣٠ ـ تسمع زهده فكأنه كبِشْر، وعن ورعه كأنه ابن حنبل.

٣١ ـ يكثر من التوريات، ويحسن سياسة اللف والدوران!.

٣٢ ـ أهداف الحياة عنده مطاطة، وقراراته مضطربة، وما يعاهد به نفسه ألا يعود عن الخطأ فيه، إلا وتجده قد نكص على عقبيه.

٣٣ ـ قليل الوفاء لمن رباه، شحيح الدعاء لمن كان على يديه بعد الله هداه.

٣٤ ـ يذكر عيوب الآخرين، وفيه عيوب لو فضحت لما جالسه أحد.

٣٥ ـ الدعوة الفردية عاطفية، والتربية الإسلامية مزاجية!.

٣٦ ـ لا يكتم سراً، ولا ينفع أن تشهده على بقلة!.

وبعد، فإني لا أبرأ نفسي مما قلت شيئاً، وإنما هو التذكير والتوجيه، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، ويصبح الدعاة الأعزاء من أصحاب الدرجات الهابطة. وأعوذ بالله أن تكون هذه الكلمات عنهم من باب الشماتة، فوالله لَلداعيةُ أشرف من قبيلة بأكملها، ولكنها صور حقيقية، ومواقف مرئية. تعرض على النفس مباشرة لتستخلص النقي، وتترك الفاسد. والله المستعان.

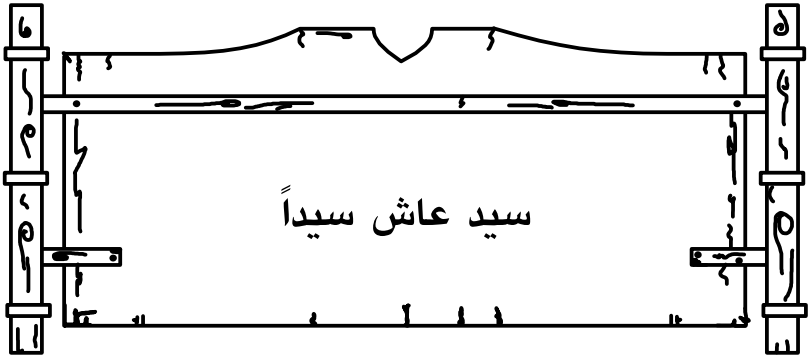

عندما تغيب عفة اللسان، ويضيق الصدر، ويكفهر الوجه، لا يتورع الإنسان عن الوقوع في الأعراض، إذ لا إيمان يذكره، ولا مروءة تنفعه.

إنه الإنسان الذي يغريه لسانه بالتكلم في أعراض الصالحين والعلماء، سفيه النفس، جاهل العقل، ينزعُ مهابة العلماء من صدور الناس، ويطعن في أعمالهم وجهودهم، ولا يشغله ما عندهم من خير عن ما فيهم من نقص. وهذا ما حصل لرجل كان يقرأ عند عمر بن عبدالعزيز وعنده رهطٌ. فقال رجل من القوم: «لحن»، فقال عمر: أما شغلك ما سمعت عن اللحن؟! ومن أمثال هؤلاء العلماء المفسر الشهيد سيد قطب ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ .

لقد كُتب عن سيد ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ كتابات كثيرة، بعضها اقترب من الحقيقة، والبعض الآخر تجاوزها، إما مدحاً غير مقبول، أو نقداً غير معقول!. والمجال هنا في هذه الكلمات لفتح الأذهان، وتحريك العقول، والنظر لكلام سيد ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ

في موضوع تكفير المجتمع أو جاهلية المجتمع بنظرة هادئة، ليتم بناء الرأي بعدئذ بكل أمانة راشدة منصفة موضوعية حكيمة متزنة.

وقبل ذكر بعض الأدلة أود القول: إن الكلام في سيد قطب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ لن يحسم الموقف، فقد غلا قوم ولا يزالون، وجفا قوم إلى حد الهلكة ولم يزالوا. ولأن الإنصاف عزيز، لذا أحببت أن أضع هذه الأدلة بين يدي القراء والباحثين والمعجبين والحانقين:

١ ـ سيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ كان كثيراً ما يردد: «نحن دعاة لا قضاة» فهو أول من قال هذه الكلمات النورانية، ودعا لفهمها، وتطبيقها واقعياً، وأخذها منه الأستاذ حسن الهضيبي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وعنون كتابه بها.

٢ ـ عند زيارة الأستاذ سيد قطب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ للداعية زينب الغزالي، وبعد صدور الطبعة الأولى من كتابه «معالم في الطريق» ناقشته الداعية زينب، في بعض ألفاظ «المعالم» وأنه قد يُفهم من بعضها تكفير المجتمع، فقال لها سيد: نحن لسنا مأمورين بتكفير الناس، والبحث عن نواياهم، ووافقها على تغيير الألفاظ التي قد يُفهم منها تكفيره للمجتمع المسلم لأنه لم يفهم لا إله إلا الله. ولكن الطغاة لم يمهلوه، حيث استشهد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ولم يحقق هذا الأمر.

٣ ـ المتأمل بشكل متأنٍ ومنصف للزاوية الأخرى في الظلال وفي كتب سيد الأخرى، يلحظ اعتداله في الحكم على الناس، ودعوته لتكوين المجتمع المسلم بشكل متدرج، ومراعاته لأحوال الزمان والمكان والأشخاص.

والخلاصة: أن الحديث عن سيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في جانب التكفير جرى في عدة مسارات، وهي:

١) الضغط وبقوة أن سيد دعا للتكفير على وجه الحقيقة، وهذا يناقضه ما سبق، بنظرة متزنة أمينة. وما كان هدف سيد إلا إحداث هزة في الناس ليعودوا لحقيقة لا إله إلا الله، وليس تكفيرهم بأشخاصهم، أو بكليتهم، والعبارات المذكورة عنه لا تؤخذ لوحدها، ولو أخطأ سيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ في تصوير بعضها.

٢) محاولة إظهار أن سيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ جعل المجتمع إما مجتمع كفر أو مجتمع إيمان كأنه لا يوجد العاصي، والفاجر، .. وغير ذلك. وأن أحكامه كانت حادة، وهذا القول يناقضه كلام سيد المشرق الأبلج في تفسيره للآيات الكثيرة في حال العصاة من المؤمنين!!.

٣) إبراز سيد في صورة الرجل المحب لدينه، الأديب فقط، القليل الفقه، ولا تعليق على وصف هؤلاء إلا ما قاله الإمام أحمد بن حنبل عن معروف الكرخي عندما قلل

بعضهم من علمه وفقهه فقال: وهل العلم إلا ما وصل إليه معروف؟!(١).

وبعد، فهذه مقالة للتنوير، وليست للبحث والتنقيب وضرورة التغيير، ولكني أود أن أختم بخاتمة أزعم أنها أهم مما سبق وهي: أن الشيخ الكبير والداعية الجليل محمد قطب ـ حفظه الله ـ والذي لا يشك أحد في أمانته وعلمه ونزاهته وصدق دعوته، كان هو الأعرف والأقرب من سيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ، وخاصة أنه ممن أشرف على طباعة «الظلال» في الطبعة الأولى، وما بعدها، وممن عاش مع سيد في لحظات السجن وخارجه، وممن كان يوفر له المصادر والمراجع التي يقرأ فيها، وممن أدرك عن فهم ما يريده سيد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وهل تغير فكره أثناء السجن وبعده؟.

فهل يا ترى سيكون جوابه ما دافعت به عن سيد في هذا المقال، وقد استقيت ما فيه من فيه، أم أنه سيقول غير ذلك؟!!.

وأثبت هنا جزءاً من قصيدة للشاعر محمد عبدالقادر فقيه، يقول في مطلعها: في يوم ما . . رُوِّع العالَم الإسلامي بإعدام المجاهد والداعية الإسلامي الكبير «سيد قطب» رَحِمَهُ اللَّهُ، الذي قابل الحكم بابتسامة عظيمة . . تُرى ما عساه

(١) سير أعلام النبلاء (٩/٣٤٠)، تاريخ بغداد (١٣/٢٠٠).

أراد أن يقول لجلاديه وهو يبتسم[1]:

ما تُرى قال «سيدٌ» عندما جَابَه الأجل
قالها في ابتسامةٍ خُطبةً فحوها وصل
«هكذا نحن للفدا مثلٌ بعدنَا مثل»
«مبدأٌ في ظلاله نشربُ الموتَ كالعسل»
«إنما الموت غايةٌ فلتكنْ غايةً جَلل»
من رأى الليثَ باسماً يزدري منطقَ الهَمَل
وادعاً في سكينةٍ فيضها عندهُ نزل
ضاوياً في إهابه باسقاً روعَ الحَجَل
سمعَ الحُكْم فانتشى نشوَة الظافرِ الثَمِل
ما درتْ يومَ رميه أنها رميةُ البطل
ربَّ قلبٍ دماؤه هزتِ السَهل والجَبَل
فتداعتْ إلى الفدا عُصَبٌ ما بها نَكَل
سيدٌ عاش سيداً ما درى قلبُه الوَجَل
ما شكا عزمه الونى ما شكا سيفهُ الفلل
عاشَ للحقِ مُقولا ومضى يضربُ المَثل
يصفعُ الباطل الذي أغرقَ النيلَ بالوحل
يا شهيداً دماؤه وصمةَ الدهرِ والأزل
للطواغيتِ كلِّها من تَعالى ومن سَفَلْ
يا فتى العرب يا فتى أنتَ . . من أنت يا بطل

(١) ديوان محمد عبدالقادر فقيه (٦٢١).

وارثَ المجدِ والهدى والحضاراتِ والدُّول
والعدالات في الدنا ضوؤها منك قد وصل
والرسالاتِ كلِّها لونها منكَ ما نصل
يا شعاعاً من السما يا ثرياً من الأمل
يا فتى العرب غضبةٌ مثل غضباتك . . الأول
تمحقُ الليلَ والدجى و«المماليكَ» والخول
أوغلَ الكفرُ في الحمى لا تدعْ كفرَ من وغل
لا تقلُ مات «سيّدٌ» رُبَّ موتٍ على مهل

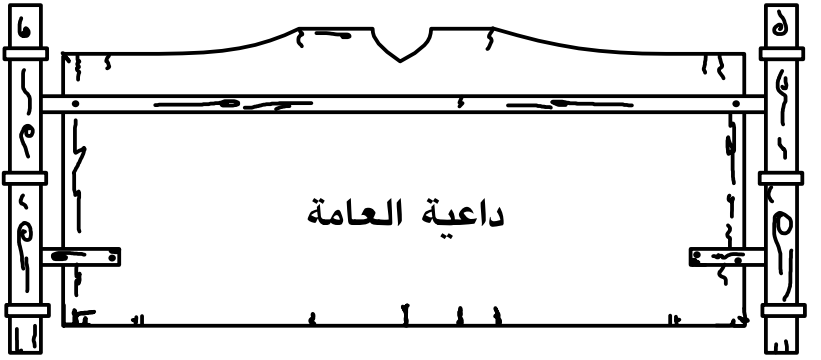

بذرة الخير متأصلة في نفوس المسلمين، مهما حاولت رياح الشر أن تعصف بتلك النفوس الطيبة.

ومن خلال العمل الدعوي يلحظ الداعية سؤال كثير من العامة عن قضايا الإسلام وأحكامه وتوجيهاته، ورغبتهم في معرفة الحق والوصول إليه.

بل إنّ بعضهم ليسأل عن أدق السنن ليعيها ويطبقها.

ومن هنا كان لا بد من وجود داعية العامة، الذاتي الحركة، المنضبط التصرف، الواعي لحقيقة الدين وتوجيهاته؛ ليدل الناس على طريق الحق، وليرشدهم إليه. ومنشأ ذلك ما أمر به النبي ﷺ من أن تبقى طائفة من الفقهاء من صحابته لتعلِّم الناس أمور دينها، وتجيبهم عن تساؤلاتهم في فترة الانشغال بالمعارك والحروب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

ومن الآية الكريمة نلحظ الآتي:

١ ـ أنّ معنى الآية: «أنَّ من كل جماعة كثيرة، جماعة قليلة تقوم بطلب العلم الشرعي والتفقه في الدين، وتجشم المشاق في تحصيله، وليجعلوا مرمى همتهم في الفقه إنذار قومهم، وإرشادهم إذا رجعوا إليهم»[١].

٢ ـ أنَّ الفقه المطلوب لابد من أن يخالطه فهم لواقع الناس: يقول الأستاذ سيد قطب ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «فالذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة ـ على التناوب بين من ينفرون ويبقون ـ لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج إلى الجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم بما رأته وما فهمته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة، وهذا الوجه الذي ذهبنا إليه له أصل من تأويل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن جرير، وهو أن الدين منهج حركي، لا يفْقهه إلا من تحرك به، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه، وبما يتجلى لهم من تطبيقاته ومعانيه.

أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: (٢٣٧٢/٤).

تحركوا؛ لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا، ولا فقهوا فقههم، ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون»[1].

٣ ـ لا بد من وجود هذا الصنف (دعاة العامة) في حياة الناس لدلالتهم على الطريق السوي.

مما سبق نرى أن فرقة المجاهدين لا بد أن تعي وتتعلم الأمور الشرعية لأجل الوصول إلى هدفهم، ومن ذلك الجهاد لإعلاء كلمة الله؛ إذ من غير وعي وفقه لهدف الدعوة فإنه لا سبيل للنجاح. وبهذا الفقه يتم إرشاد الناس (العامة) للمنهج الأقوم. ومن خلال الآية السابقة نستلهم هذا المعنى: «إن الفقه في دين الله والجهاد متلازمان؛ إذ لا يمكن أن يقوم جهاد حقيقي بلا فقه»[2].

فوجب علينا أن نكون سبباً في توعية المسلمين وتوجيههم والنزول لساحتهم، حتى يتم لنا الأمر على خير بإذن الله.

(١) الظلال: (١٧٣٦/٣).

(٢) الأساس: (٢٣٧٢/٤).

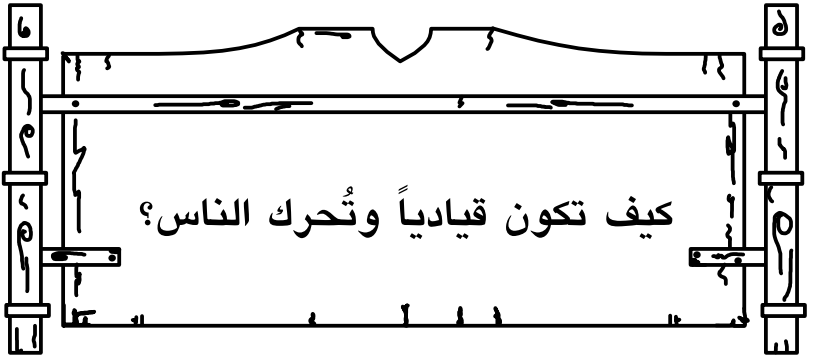

يعرّف الإداريون القيادة بأنها: «القدرة على تحريك الناس نحو هدف معين»، ويعرفها آخرون بأنها: «صناعة القياديين».

وقيادة الناس أمانة، وهي من أصعب الأمور، وذلك بسبب اختلاف طبائعهم، والأمور المحيطة بهم، ويحتاج القائد إلى فن في التعامل، ورُقي في أسلوب المحاورة للوصول إلى الهدف المنشود.

وحتى يكون القائد بهذه المثابة، فلابدَّ من أن يكون صاحب تجربة فذّة، وممارسة لهذه الصنعة.

والمتتبع للقادة المهرة، يجد أنهم شاركوا في ميادين العمل كثيراً، وصاغتهم التجارب منذ أن كانوا مقودين متبوعين ينصتون للأوامر، إلى أن أصبحوا قادة يُشار إليهم.

وما من شك في أن صحة العزائم، والصبر المتواصل، وشيئاً من الصفات النفسية والخُلُقية والخَلْقية، ودُربة على القيادة متدرجة، تكفل نجاحاً للقائد بإذن الله، وبالتالي فإن القيادة لا تشترط سناً بعينها، أو من له سلالة عريقة.

وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن صفات قائد عظيم، هو طالوت. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وجاء في تفسير الآية الكريمة: «قيل عن طالوت: كان سقاء، وقيل: دباغاً، ولم يكن من سبط النبوة أو الملك، بل إن الله اصطفاه، وزاده بسطة في العلم الذي هو ملاك الإنسان، وأعظم وجوه الترجيح، وزاده بسطة في الجسم الذي يظهر به الأثر أثناء الملمات»[1].

فأمر القيادة لا يُورّث إذاً، ولكن يُعطى لمن له خبرة ودُربة، وحُبي بصفات أهّلته لذلك.

وقد يعجل بعض الدعاة باختيار قائد لم تصهره الشدائد، ولم يعرف حقيقة التعامل مع الناس، فيخلط بين الواجب والمندوب، وقد يسيء أكثر مما يصلح.

ونظن أنه بهذه الطريقة نستطيع أن نكوِّن القدوات، ولو على حساب عثرات كبيرة، مستأنسين بشاهد السيرة المشهور، من قيادة أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ في بعثه لغزو الشام ومعه أبو بكر، وعمر، وكبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين!.

ونقول: لعلنا قد استعجلنا، ولم ندرك حقيقة الأمر. فعلى صغر سن أسامة رضي الله عنه وقد بلغ ثمانية عشر عاماً، ومعه

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣٣٨/١).

كبار الصحابة كأبي بكر وعمر، وقد تولى قيادة جيش المسلمين لغزو الروم، إلا أن فنون القيادة، ومهارة القتال كانت واضحة عنده.

فمما يرويه الإمام الذهبي[1] عنه «أنه كان خفيف الروح، شاطراً، شجاعاً، ربّاه النبي ﷺ وأحبّه كثيراً».

فهذه الصفات التي رواها الإمام الذهبي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ عن أسامة بن زيد، بيّنت لنا كثيراً من الأمور التي نغفلُ عنها عند النظر في تعيين صغار القادة على الكبار.

فأسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان «خفيف الروح»، يستطيع بهذه النفسية التأثير على الناس، وتحريكهم نحو ما يريد.

كما أنه كان «شاطراً»، فطناً، ذكياً، ألمعياً، فاهماً لمجريات الأمور، ذا إدراك عميق للمواجهات، والتحديات التي تقابله.

وكان «شجاعاً» قوياً، قدوة لإخوانه وقت الأزمات والملمات.

وتربية النبي ﷺ له تبيّنُ لنا أن هذا القائد أخذ كثيراً من صفات القيادة، عن طريق القدوة، كما أنه تعلّم كثيراً من فنون التعامل، وحسن التوجيه، والتخطيط السليم، والنظر العميق.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٤٩٨).

وهذا ما عناه الإمام الذهبي بقوله عنه: «رباه النبي ﷺ».

وأضف إلى ذلك جملة الأخلاق الكريمة الفاضلة، والمعاملة الحسنة مع ربه ومن ثم إخوانه.

ومن التأملات في هذه الحادثة أنه عندما نختار القائد الواعي ذا الصفات المؤهلة للقيادة، فإن علينا أن نوكل له مهام القيادة، وإن كان هناك من هو أكبر منه.

وقد تكلم الناس في قيادة أسامة رضي الله عنه إلا أن النبي ﷺ ردّ عليهم ظنّهم فيه، من عدم قدرته على القيادة[1].

ومن هنا نرى أنَّ من الخطأ أن نتدخل في أمر القائد، واختياره لبعض الأمور التي قد يخالف فيها إخوانه، وذلك في الأمور الاجتهادية، التي يرجع الحكم النهائي فيها لوجهات النظر. فلا يزال القائد هو الفيصل النهائي لهذه المسائل، ولا يصح أن يُعاتب عليه، في مسائل اجتهادية لا تأثير فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢٤)، ومسلم (١٦٨٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث النبي ﷺ بعثاً وأمَّر عليهم أسامة بن زيد فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي ﷺ: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده».

وهنا لا نعني إلغاء أمر الشورى بين القائد ومن معه، كلا، ولكن نعني إعطاءه الحرية في عمله القيادي بقدر ما. لذا فإن من الضرورة الاهتمام بتربية النشأ الذين يكتسبون صفات القيادة، ويملكون شيئاً منها، وذلك بالتربية المنظمة في درجات القيادة، حتى ينشأ لدينا قياديون مهرة ذوو خبرة وإمرة جيدة.

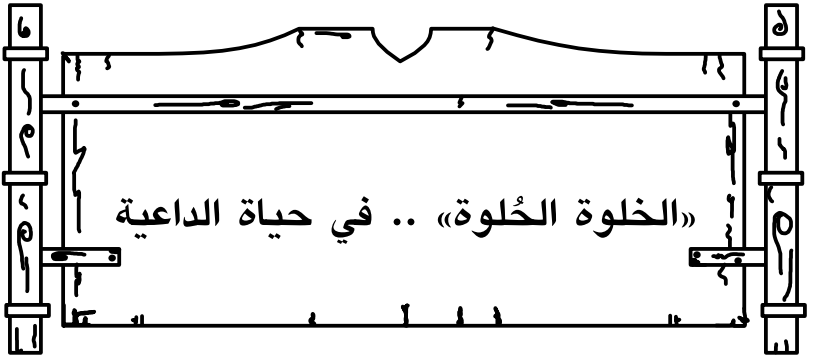

للعزلة في حياة الداعية فوائد كثيرة، وأهداف عظيمة، ومقاصد نبيلة، وثمرات يانعة، ومن ذلك: الخلوة بالله، وراحة القلب من هموم الدنيا، وطول الصمت، وشغل الإنسان بنفسه، وقلة اشتغاله بذكر غيره، وتفقد حاله، ومراجعة أعماله.

ومنها: التفرغ لرقة القلب، وتجديد الإيمان، والعزوف عن منافسة الدنيا، وأعظمها الشوق إلى لقاء الله، بالتفكر والتدبر والالتجاء إليه والانطراح بين يديه.

ومنها: إذلال النفس بالتواضع، وإنصاف الناس، والإقرار بالحق، وكذلك جمع الحسنات بكثرة الذكر، وتحريك الفكر، والإعداد للنفس، والتخطيط للمستقبل، في مشاريع مختلفة، تكون ثمرة حلوة استفادها من هذه الخلوة.

هذه بعض الثمرات والفوائد التي تجنيها أخي الداعية عند تفرغك لنفسك، وخلوتك لوحدك، وهي من المطالب الأساسية للدعاة العاملين، بعد فترة من الجهد والتضحية،

التي يعقبها ـ في الغالب ـ فترات من الضمور والضعف الإيماني والعبادي، والهزال الإنتاجي والفكري.

وحتى تستثمر هذه الخلوة فلا بد من معرفة ضوابطها التي يمكن من خلالها أن تكون رافداً حيوياً ومنبعاً معيناً في حياة الدعاة . . ومن ذلك:

* يجب معرفة الزمن المحدد لهذه الخلوة والعزلة . . ففتراتها مختلفة حسب الأفراد وطبائع أعمالهم، فقد تحتاج لدى بعض الأفراد إلى شهر مثلاً، ولدى آخرين أسبوعاً وقوم يوماً، وهكذا. . .

* لا تعني الخلوة الانقطاع الكلي عن المطالب الأساسية، والحاجات الملحة للإنسان، بل على الإنسان حقوق لنفسه، وعليه مراعاة المهم من قضاياه التي يحتاج لمتابعتها[1].

* من أجمل فترات الخلوة، ما يكون خارج البيئة التي يسكن فيها الإنسان، وهذا أمر يذكره علماء النفس، وملخصه: «أن الشخص إذا أراد السفر لإراحة بدنه، وتدبير

---

(١) وفي الحديث الذي أخرجه أحمد (٥٠٢٢)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢)، عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**». قال الأرناؤوط في تحقيق المسند: إسناده صحيح رجاله ثقات، رجال الشيخين.

أمره، فعليه أن يختار مكاناً غير مألوف لديه ـ بيئته المعتادة ـ وألا يسافر وعقله وقلبه مرتبطان بالكثير من المشاغل».

* النفس دائمة التقلب؛ لذا لابد من جلب بعض المسليات، وبعض وسائل الترفيه المعينة في هذا الباب.

* لا ينبغي أن يزيد وقت الخلوة عن الحد الطبيعي . . على حسب أعمال الإنسان، فقد يكفي البعض ثلاثة أيام، أو خمسة أيام . . المهم ألا يزداد وقت هذه الخلوة حتى لا تؤثر على غيرها.

* الخلوة ليست مرهونة بزمان أو حادثة معينة، بل يمكن أن يختلي المرء بنفسه في الأسبوع ساعات عدة، وفي اليوم ساعة.

* التجارب الناجحة هي في تلك الخلوة التي تكون منتظمة وواضحة الغاية.

ما أجمل أن يحيي الدعاة سنة نبيهم عندما كان يخلوا في غار حراء الليالي ذوات العدد، ويعتكف في رمضان وغيره، إحياء للقلب وتزكية للنفس وتطهيراً للروح. ونعم الدعاة لو كانوا يفعلون ذلك.

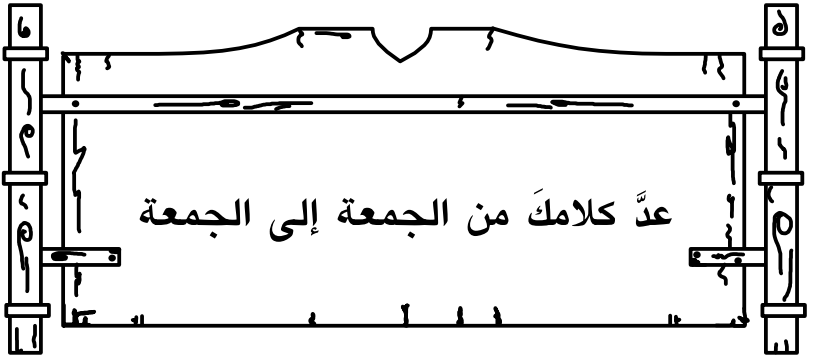

من أهم الأمور التي تشغل المسلمين الصالحين، والدعاة العاملين كيفية المحافظة على أوقاتهم، حتى إن العلماء الأولين كانوا كثيراً ما يحذّرون من تضييع الزمان. قال الفضيل بن عياض: (أعرفُ من يُعدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة)[1]!.

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك؟ فقال: (أصدقكم، كنت أقرأ فتركت القراءة).

وحتى يصير الداعية محافظاً على عمره، عليه أن يكون حازماً في وقته، فلا يرضى بتضييعه في الأمور التي تأخذ من وقته وهو لا يشعر، وهذه بعض الوصايا من أجل حفظ الوقت:

يذكر علماء الإدارة أن من كانت أعماله مكتوبة في قائمة واضحة فإنه ينتج أكثر، ويحسن استغلال أوقاته، ومثال

(١) الورع لابن أبي الدنيا (٧٨/١).

ذلك: هل لديك خطة واضحة للقراءة تستطيع أن تعرف من خلالها متى بدأت القراءة في كتاب ما؟ ومتى ستختمها؟ فتسجل ذلك في ورقة أو دفتر بشكل منتظم.

هل لديك مشاريع دعوية محددة خلال الشهر الواحد؟ مثال ذلك: كتابة مقال تربوي أو دعوي وإرساله كمشاركة إلى إحدى المجلات أو الصحف؟ أو توزيع رسائل إسلامية دعوية على الأصدقاء والجيران؟.

هل يوجد في برنامج المحاسبة اليومي بنود منوعة محددة المعالم تحاسب نفسك على ضوئها؟ ومثال ذلك: قيام أربع ركعات في الليل، والتصدق بصدقة يومية، والمحافظة على السنن الرواتب، والصلاة على رسول الله ﷺ في اليوم مائة مرة، وقول: «**لا إله إلا الله**» مائة مرة، «**وسبحان الله وبحمده**» مائة مرة، وغير ذلك من الأوراد الشرعية.

ثم هل لديك خطة أو استراتيجية لإتقان عمل ما؟ مثال ذلك: حفظ أجزاء محددة من كتاب الله، ومعرفة تفسيرها، وإتقان ألفاظها، ودراسة أحكامها؛ لتكون بعد مضي المدة المحددة مرجعاً وخادماً لإخوانك وللمتعلمين من حولك من خلال هذا العلم؟.

وفي الختام: هل بإمكانك ـ في نهاية كل شهر ـ معرفة النتائج التي حققتها في ضوء أهدافك المكتوبة، وأعمالك

المنجزة، على شكل إحصائيات، فتعرف كم حققت؟ وفي كم مرة أخفقت؟؛ لتتعرف الأسباب، وتدرك هل أنت تتقدم أم أنك تعمل بلا هدف؟ وتضيع الزمان في غير فائدة أو تركيز لعمل ما؟

راجع يا أخي الأسئلة السابقة مرة أخرى، وأجب عنها، وإذا لم تستطع الإجابة لوحدك فاجعل غيرك من الجادين يساعدك، لتعلم هل أنت ممن عني بحفظ وقته أم لا ؟!

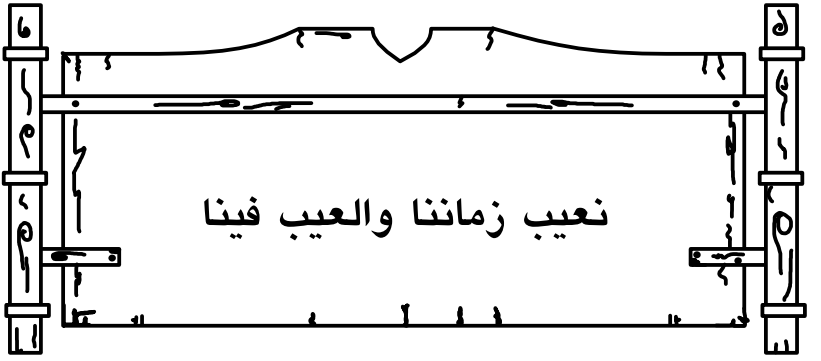

يتمنى الواحد منا أن يعيش طوال عمره متلذذاً بالطاعة، مستمراً عليها، قائم الليل، صائم النهار، دائم الذكر، عامل الفكر، عالي الهمة، حسن السريرة، ولكنّ نفسه لا تطيق ذلك كله؛ ويُرْجِعُ السببَ إلى فساد الزمان، وكثرة الأشغال، وتوالي الأحزان. فإذا اقتنع بهذه الحجج الواهية، لبَّس الشيطان عليه أمره، ورضي بالقليل من الذِكر، والصلاة، والصيام، وسائر الأوراد.

ولو سأل كل منَّا نفسه هذه الأسئلة:

كم ركعة أقوم فيها الليل بشكل يومي؟.

هل لي ورد يومي من القرآن أحافظ عليه ولو قليلاً؟.

كم مرَّة أذكر الله فيها بالأوراد الشرعية؟

هل أذكر الله مائة مرة (**لا إله إلا الله** . . .)، و(**سبحان الله وبحمده**)؟

هل لي أيام أصوم فيها كل أسبوع، أو كل الشهر على الأقل لا أتنازل عنها؟.

هل لي صدقة يومية أجمعها، ثم أدفعها إلى مؤسسة خيرية، ولو كان المال قليلاً؛ لأحوز على دعوة المَلَك «**اللَّهم أعط منفقاً خلفاً**»؟.

هل أحافظ على الفرائض في أوقاتها، وخاصة صلاتيْ العصر والفجر؟.

هل لي نشاط رياضي مناسب أواظب عليه للمحافظة على صحتي؛ حتى أتمكن من عبادة ربي؟.

هل لي ورد يومي من قراءة الكتب النافعة؟.

هل لي مشاركة اجتماعية أسبوعية أعود بها مريضاً، أو أجيب دعوة، أو أشهد جنازة؟.

هل حافظت على السنن الرواتب (اثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة)؛ لأفوز ببيت في الجنة؟.

هل أحافظ على الجلوس في مصلى الفجر حتى تطلع الشمس مرة أو أكثر في الأسبوع؛ لأحظى بثواب حجة وعمرة تامتين؟.

هل أحافظ على أذكار الصباح والمساء الشرعية؟.

اسأل نفسك واسأل من يعز عليك؛ فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال يوماً: «**من أصبح منكم اليوم**

صائماً؟ قال أبو بكر الصديق: أنا. قال: **فمن تبع منكم اليوم جنازة؟** قال أبو بكر: أنا. قال: **فمن أطعم اليوم مسكيناً؟** قال أبو بكر: أنا. قال رسول الله ﷺ: **ما اجتمعن في رجل إلا دخل الجنة»**[1].

فإذا لم تكن هناك أجوبة مسددة، فانظر وتأمل..

عن أبي داود الحفري قال: دخلت على كرز بن وبرة بيته فإذا هو يبكي.

فقيل له: ما يبكيك؟.

قال: إن بابي لمغلق، وإن ستري لمسبل، ومنعت جزئي أن أقرأه البارحة، وما هو إلا من ذنب أذنبته[2].

وقال الحسن البصري لرجل: «إذا لم تقدر على قيام الليل، ولا صيام النهار، فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب»[3].

هكذا كان السلف يتعاملون مع أنفسهم، عالمين بأدويتها ومثبطاتها، وكانوا يعتقدون أن الذنوب هي السبب الرئيس في هبوط إيمانهم، وضعف عبادتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) العقوبات لابن أبي الدنيا (٦٣/١).

(٣) التهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا (٣٣٩/١) وروي ذلك أيضاً عن عمر بن ذر.

لقد كانوا يربطون ذلك بالذنوب. أما نحن ففهمنا أن الذنوب هي الموبقات فحسب، ونسينا أن إيذاء الناس بالقول والعمل، وإخلاف الوعد، وتضييع الحق، والنوم عن صلاة الفجر، كلها حواجز عن رفعة الإيمان في النفوس.

فهل نتعامل مع أنفسنا بالحق، ونداوي أدواءنا بأنفسنا، أم سنبقى نرى السبب في غيرنا؟.

نعيبُ زماننا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا
ونشكو ذا الزمانَ بغير جُرمٍ ولو نطقَ الزمانُ بنا هجانا

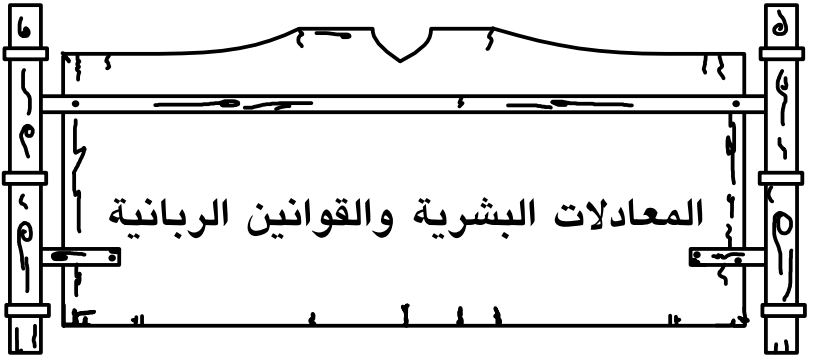

يحار عقل الحكيم لماذا هذا الاستبداد للكرماء والشرفاء من نبلاء الأمة؟.

لماذا هذا التسلط والتعبيد لحريات الأحرار والبُناة للحضارات والأمجاد؟.

لماذا هذا الطغيان والصلف، والزج بالأخيار والفضلاء في غياهب الظلمات، وجدران المادة؟.

لماذا هذا التغافل والتجاهل والتناسي لإنسانية الإنسان واحترام عباد الله؟.

إنني لا أرى من إجابة لكل ما سبق وما يتبادر للذهن من سؤال حول أساليب القمع والعنجهية وقلب الحقائق إلا الشره والبطر، ونفخة الشيطان في روح الإنسان كي يصيّره كالإله، يُتذلل عند قدميه، ويَتمسح له الخلق، فينتشي حينها فقط لو أراد ذلك!. ولأن عدل الله قائم وسنته لا تتغير، فإن للظلم صولات، وللباطل جولات، ولكن للحق رعد وبريق، يدفع به الباطل، وسنوات الزمان مهما طالت، وأتعبت،

وأقلقت، وشوهت، فإنها ستحول بإذن الله كل خلية داخل قلوب الأطهار الأحرار إلى جنة من رضا الله، وترسانة ضد كل اعتداء، وصلف، ولطم، وتعدي!.

وسيتحول الليل البهيم المظلم المحطم للمعنويات إلى رحمة ينشرها الله لأوليائه في الأماكن الضيقة، حتى يأنسوا بهذا الليل من حيث لا يتمنى الظالمون، بل وسيغنون في ليلهم: (يا ظلام الليل خيّم إننا لا نخشى المنون)!!.

أولئك فقط ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤]. فاهنأ واسعد أيها المظلوم بأجريك، وانتشي أيها الظالم، فلئن سكت الدهر عنك وعن أمثالك زماناً فإن لكم يوماً ستكونون فيه كالذر ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وفي قصة يحيى البرمكي[1] بيان للقانون الرباني، حيث كانت لسلطته وملكه الشأن الرفيع، وعندما زال ملكه ودخل السجن مع ابنه قال له واعظاً لما جرى له ولكل من خدعتهم معادلاتهم البشرية:

ربَّ قوم قد أناخوا عِيسهم ... في ذرا مجدهمُ حين بَسقْ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهم ... ثم أبكاهمْ دماً حين نَطقْ

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١١/١٨٥)، «والعِيْس»: الإبل.

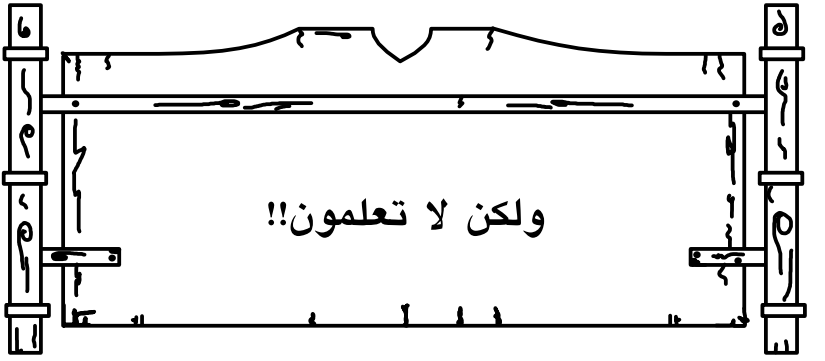

يُرسل الله سبحانه وتعالى على ألسنة خلقه حكماً ومواعظ تستقر في قلوب الناس، فتكون كالزاد للراحلة، وكالمنهج للقافلة، بها يستهدون، وبنورها يستضيئون.

وأعظم هذه المواعظ وأبلغها ما جعلها الله على ألسنة أنبيائه ورسله عليهم السلام.

ومن أجلِّ هذه المواعظ البليغة، قول عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه:

«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم. فإن القلب القاسي بعيد عن الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد. فإنما الناس مبتلى ومعافى. فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية»[1].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٨٦)، وورد مثل هذا عن النبي ﷺ بلفظ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**» أخرجه الترمذي (٢٤١١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن غريب.

ففي هذه الكلمات المؤثرة يذكر نبي الله عيسى ابن مريم بالمحافظة على ذكر الله؛ لأن الإنسان إذا لم يشتغل بذلك شُغل بداهة بأمور الدنيا التي تقسِّي القلوب، والقلب القاسي بعيد عن الله، وإذا كان القلب بعيداً عن الله فإن الشيطان يتسلل إليه بكل سهولة، فكلامه في أمور الدنيا، وحرصه للدنيا، وعمله ليجمع من الدنيا، واهتماماته لأمر الدنيا. ينغمس فيها، ويصبح عبداً لها. فيحطم نفسه بالحرام، **(فإن القلب القاسي بعيد عن الله ولكن لا تعلمون)!**

ومن وصاياه عليه السلام، أن يشتغل الإنسان بعيبه عن عيوب الناس، فما أصابه من رحمةِ الله وسلامةٍ لقلبه فليحمد الله على ذلك، فالناس في هذه الحياة مبتلى ومعافى، وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. وما أصدق ما قاله لبيدٌ رضي الله عنه في بيته الذي يكتب بماء الذهب:

ما عاتبَ المرءُ الكريمُ كنفْسِه والمرءُ يُصلِحُه القرينُ الصالحُ

وحتى يدرك الإنسان نعمة الله عليه فليحمد الله على العافية؛ فإنها لا تعوض بثمن.

ولذا قال ﷺ: «**من باتَ منكم آمناً في سربه** (بيته)، **معافىً في بدنه، عنده قوت يومه فقد حيّزت له الدنيا بحذافيرها**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤) عن عبدالله بن محصن رضي الله عنه وكانت له صحبة. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وهكذا هي المواعظ الإيمانية التربوية تعمل عملها في النفوس مباشرة. إننا بحاجة ماسة إلى مثل هذه المواعظ القليلة ذات المعاني الكبيرة، التي يحرص على تسجيلها وحفظها والعمل بها رجال الدعوة اليوم، يذكرون بها أنفسهم، ويعظون بها إخوانهم وأهلهم. كما أن الواعظ وإمام المسجد والمعلم هم من أكثر الناس حرصاً على هذه المواعظ ليلقوها كخواطر إيمانية ونصائح تربوية. فإنها ـ والله ـ سبيل لرقة القلب مباشرة وبدون كلفة. فهل نبادر بذلك؟!.

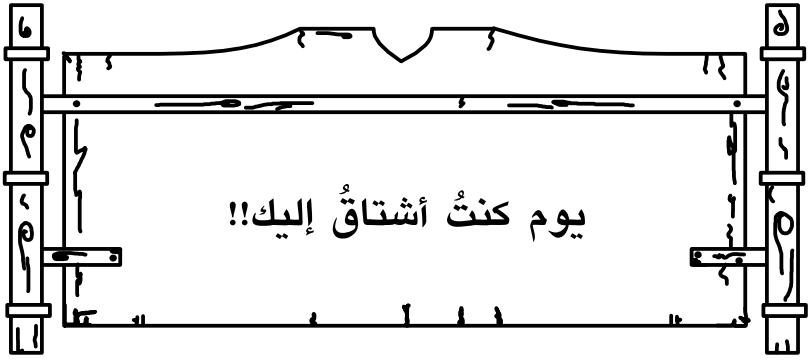

«يوم كنت أشتاق إليك» كنتُ أشعر بشعور غريب، وحنان عجيب، وشوق لا أطيق له اصطباراً، وكأنّ ملكاً يسوقني إلى روضة من رياض الجنة.

كنتُ أتحيّن اللحظات، وأرْقب الفرص المناسبة لكي أطرق عليك الباب، أو أن تجمعني بك لحظة قدر على غير موعد فأراك وأسلّم عليك.

كنتُ حقاً أحسُّ بالاشتياق إليك، والرغبة في لقائك، ولو لمجرد سماع أخبارك.

كنتُ عندما أزورك أو أراك تأنس نفسي وأرتاح وأطمئن.

تحدثني بلا تكلّف، وتسأل عن أخباريَ الخاصة والعامة، وأقرأ من وراء السطور صدق اللهجة، وإخلاصَ النية، وأخرجُ من عندك وأنا أدعو لك.

كنتُ أجلسُ معك أحياناً لحظاتٍ يسيرة؛ لأن لديكَ أعمالاً تود إنجازها، ومواعيدَ تحرص على الوفاء بها، والتقيدَ بموعدها، فأتعلم منك بالقدوة ما لا أتعلمه بالكلام.

وأحياناً أخرى كنتُ أجلس معك لفترة طويلة، ولكنها محددَة الغاية، محسوبَة القيمة، محسوسةَ الثمرة.

كنتَ تتحرَّج في الحديث عن قيام الليل؛ لأنك ترى أنك مقصّر في هذا الجانب.

كنتَ لا تمازح إلا بالحق، وتديمُ أو لربما تطيل الابتسامةَ الجميلةَ الرائعة.

كنتَ تقرأ عليّ الحديث وأحسُّ بأنه يملأُ كلَّ جوانحك، ويملأُ كلَّ أقطارِ نفسك، وتستولي عليك الحالة فلربما خرجت دمعتك العصيّةُ التي طالما حرصت على إخفائها!.

كنتَ تعمل أكثر مما تتكلّم، كنتَ تعطي بقدر ما تستطيع، فيكون لقولك على قلته حلاوة، ولفعلك طلاوة، ولبذلك اليسيرِ بركةٌ وأيُّ بركة.

كنتَ بحق المربي والأستاذَ والناصحَ والأبَ والأخَ والإنسانَ والقدوة.

كنتُ يا أخي أشعر، أثناء جلوسي معك، بما قاله أحد

تلاميذ الحسن البصري: «كنا إذا دخلنا على الحسن خرجنا ولا نعدُّ الدنيا شيئاً»[1]!.

ولكن!... وآه من لكن..

صرتُ اليوم لا أشتاق إليك كثيراً..

فهل السبب أنا أم أنتَ أم كلانا معاً؟!.

صرت لا آتي إليك إلا بالطلب!.

إذا جلستُ معك الآن أحسُّ أن في كلامك نوعاً من المبالغة، والعتابَ على إخوانك الدعاة، أراكَ لست قادراً على إيصال المعاني التربوية والإيمانية كما كنتَ سابقاً.

هل لأن هناك مشوشات تمنع الإرسال؟.

هل لأنكَ أدخلت جهاز «ستلايت»، فأصبحتَ تتابع آخر الأخبار من عدة قنوات، وبعض البرامج العالمية التي لا تخلو من سوءات؟!.

هل لأنكَ تساهلت في بعض الآراء الفقهية، وتوغّلت في عمق التجارة ذات الأرباح السريعة والتي تحتاج إلى فتيا على الطائر؟!.

هل لأنكَ مشغول طوال الوقت، فازدحمَتِ الأعمال، واختلطتِ الأموال، وأصبح وأضحى لديك زبائن عمل؟!.

---

(١) قصر الأمل، لابن أبي الدنيا (١٨/١).

هل لأنكَ اتخذت أسلوب التورية، وتساهلت في ذنوب الخلوة؟!.

هل لأنكَ صرت تصلّي في البيت أكثر مما تصلي مع الجماعة فضلاً عن شهود صلاة العصر والفجر؟.

لا تظنّ يا أخي أنني أعيش في وهم، أو أسيء الظن!.

كلا والله! إنما الله الذي جعل حبك في قلبي وحرّك لوعة اشتياقي، هو الذي وضع لك القبول في الأرض، وأشهد ملائكته على ذلك.

فبالله عليك يا أخي سل نفسك فقد سألت نفسي كثيراً وطويلاً هل تستحق أن يضع الله لك القبولَ ويُشهد الملائكة على ذلك؟.

هل الملائكة ستشهد؟ هل الأرض ستشهد؟.

هل فكركَ وخبايا نفسك وما يمليه عليك قلبك، وما تضمره في خواطرك سيشهد؟.

هل سيشهدون أنهم يحبونك، يحبون فطرتك النقية؟ وسريرتك التقية؟.

هل أدّيتَ حق الله لتتهيأ لرحمته وحب خلقه؟.

وقبل أن أودعك أحب أذكرك بالنصيحة الغالية للعلامة ابن العربي التي طالما كنتَ تذكرني بها: «مقدار كل امرئ حديث قلبه»[1].

إنني يا أخي أكنُّ لك الحب ولكن لا أحسُّ بالاشتياق إليك اليوم! فهل السبب مني أو منك؟ لقد صارحت نفسي، فهل صارحتَ نفسك؟.

(١) حادي الأرواح (٢٨٢/١).

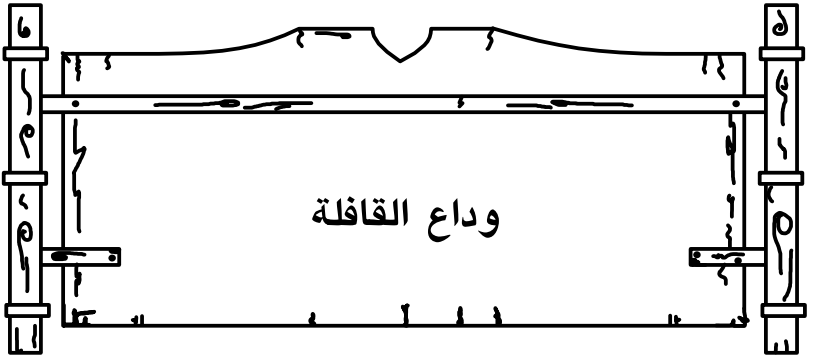

الحياة كلها مدرسة، ينجح فيها قوم، ويرسب فيها آخرون، والرسوب في حد ذاته ليس مشكلة طالما أن الإنسان تعلَّم درساً من تجربة التعلم للتغيير وتجاوز الخلل، ولكنَّ المشكلة الأكبر أن يبقى الرسوب تجربة ملازمة للإنسان بمحض إرادته!.

وهكذا فإن الجيل الدعوي الراشد هو الذي يدرس في مدرسة الصالحين ويتعلم من مناهجهم العظيمة، ويستفيد من توجيهاتهم النافعة، وجيل الدعوة مع هذه المدرسة صنفان:

صنف فهم الدرس التربوي تماماً، واستمر إلى النهاية، فالتقط عقله الحكمة، ووعى قلبه التجربة، فضبط سلوكه، وتحكَّم في نفسه، حتى أُلينت فسهل قيادها، وقادها نحو أفراح الروح.

وصنف آخر مرّت عليه التجربة في دقائقها الخفية، ودروبها الشائكة، فالتقط عقله الحكمة، ووعى قلبه التجربة،

ولكنه لم يستمر في حضور الدرس . . فنسي أو خلَّط، وسقط من حيث لم يرد ذلك!.

لهذا وجب على أساتذة الجيل دوام التعليم لمنهج الصالحين، وتزويد أنفسهم وتلاميذهم باللفتات التربوية الإيمانية في وقت وشكل مناسب، عبر الدرس، وبُعيد الصلاة، وفي السيارة والطائرة، وأثناء اللقاء وجلسة الطعام، ومن خلال الرسائل البريدية والهاتفية، حتى لا ينسى الجيل الحكمة في وقت تُنسي فيه الفتن صاحبها!!.

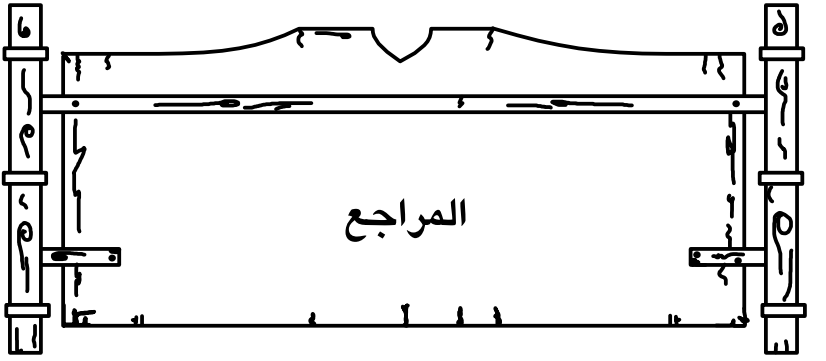

١ ـ **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد الغزالي، دار الخير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢ ـ **الأساس في التفسير**، للداعية سعيد حوى، دار السلام ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٣ ـ **إغاثة اللهفان**، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد فقهي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية.

٤ ـ **البداية والنهاية**، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥ ـ **تاريخ الإسلام**، للذهبي، تحقيق: بشار معروف عواد، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٦ ـ **تاريخ بغداد**، لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٧ ـ **تاريخ دمشق**، لابن عساكر، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٨ ـ **تدريب الراوي**، لعبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة الرياض الحديثة ـ الرياض، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف.

٩ ـ **الترغيب والترهيب**، لعبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري أبو محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٠ ـ **التهجد وقيام الليل**، لابن أبي الدنيا، تحقيق: مصلح بن جزاء الحارثي، مكتبة الرشيد ـ الرياض، الطبعة الأولى **١٤١٨**هـ.
١١ ـ **جامع العلوم والحكم**، لأبي الفرج عبدالرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الأولى **١٤٠٨**هـ.
١٢ ـ **الجواب الكافي**، لابن القيم الجوزية، دار الندوة الجديدة ـ بيروت، الطبعة الأولى **١٤٠٧**هـ.
١٣ ـ **حادي الأرواح**، لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٤ ـ **حلية الأولياء**، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الرابعة، **١٤٠٥**هـ.
١٥ ـ **ديوان محمد عبدالقادر فقيه**.
١٦ ـ **ذم الهوى**، لعبدالرحمٰن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبدالواحد.
١٧ ـ **الرسالة القشيرية**، للقشيري، دار الخير ـ دمشق، الطبعة الثالثة **١٤١٨**هـ.
١٨ ـ **الرقة والبكاء**، لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة الثالثة **١٤١٩**هـ.
١٩ ـ **سنن ابن ماجة**، لمحمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر ـ بيروت.
٢٠ ـ **سنن أبي داود**، لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت **١٤١٦**هـ.
٢١ ـ **سنن الترمذي**، لمحمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢٢ ـ **سنن النسائي**، لأحمد بن شعيب بن علي النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، **١٤١٤**هـ.

٢٣ ـ **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، وإشراف شعيب الأرناؤوط ـ مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
٢٤ ـ **شرح الحكم العطائية**، لابن أبي الدنيا.
٢٥ ـ **شعب الإيمان**، للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٢٦ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، لمحمد بن حبان أبو حاتم البُستي، ترتيب علاء الدين بن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.
٢٧ ـ **صحيح أبي داود**، لمحمد ناصر الدين الألباني.
٢٨ ـ **صحيح البخاري**، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.
٢٩ ـ **صحيح النسائي**، لمحمد ناصر الدين الألباني.
٣٠ ـ **صحيح مسلم**، لمسلم بن الحجاج أبو الحسين، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣١ ـ **صفة الصفوة**، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، ود. محمد رواس قلعجي، دار المعرفة ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
٣٢ ـ **في ظلال القرآن**، لسيد قطب، دار الشروق ـ القاهرة، الطبعة الخامسة والثلاثون ١٤٢٥هـ.
٣٣ ـ **العقوبات**، لابن أبي الدنيا.
٣٤ ـ **فتح القدير**، لمحمد بن علي الشوكاني.
٣٥ ـ **قصر الأمل**، لابن أبي الدنيا.
٣٦ ـ **لسان الميزان**، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: دائرة المعارف النظامية ـ الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

٣٧ ـ **المأثورات**، حسن البنا. دار الكلمة ـ القاهرة.
٣٨ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر ـ بيروت **١٤١٢**هـ.
٣٩ ـ **المجمع شرح المهذب**، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت **١٤١٥**هـ.
٤٠ ـ **مسند أحمد**، لأحمد بن حنبل، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، **١٤٢١**هـ.
٤١ ـ **مصنف ابن أبي شيبة**، لعبدالله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة، تحقيق: حمد بن عبدالله الجمعة، ومحمد إبراهيم اللحيدان، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، الطبعة الأولى **١٤٢٥**هـ.
٤٢ ـ **الموطأ**، لمالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: د. تقي الدين الندوي، دار القلم ـ دمشق، الطبعة الأولى **١٤١٣**هـ.
٤٣ ـ **نصب الراية مع حاشية بغية الألمعي**، لعبدالله بن يوسف أبو محمد الحنفي الزيلعي، تحقيق: محمد يوسف البنوري، دار الحديث ـ مصر **١٣٥٧**هـ.
٤٤ ـ **النور السافر**، لابن أبي الدنيا.
٤٥ ـ **الورع**، لابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد بن حمد الحمود، الدار السلفية ـ الكويت، الطبعة الأولى **١٤٠٨**هـ.

الموضوع	الصفحة
● **الإهداء**	٥
● **تقديم الشيخ عبدالله الحميد البلالي**	٧
● **المقدمة**	٩
قصة القافلة	١١
قوم تعجلوا الرقة	١٣
أنين الصالحين	١٦
الروحانية في اللقاءات الدعوية	٢٠
كنا أمس يداً واحدة على من سوانا	٢٣
أدب السلف في هضم النفس	٢٥
الشيخ الذي لا يتأدب	٢٨
ارجع فإنها فتنة للتابع والمتبوع	٣٢
أخطر القضايا	٣٦
أمل	٣٨
تنوع المربين للتلميذ الواحد	٤٠
التحاسد بين الصالحين ورجال الآخرة	٤٣
أولئك أهل الله والصفوة الملأ	٤٦
تمسك إن ظفرت بودّ حر	٤٨

الموضوع	الصفحة

الزموا طريقة السَّريّ ٥١
هكذا تكون المراقبة ٥٣
دعاة من الدرجة الثالثة ٥٥
سيد عاش سيداً ٦٢
داعية العامة ٦٨
كيف تكون قيادياً وتُحرك الناس. ٧١
الخلوة الحلوة في حياة الداعية ٧٦
عدّ كلامك من الجمعة إلى الجمعة ٧٩
نعيب زماننا والعيب فينا ٨٢
المعادلات البشرية والقوانين الربانية ٨٦
ولكن لا تعلمون ٨٨
يوم كنت أشتاق إليك ٩١
وداع القافلة ٩٦
● **المراجع** ٩٨
فهرس الموضوعات ١٠٣